خوان خوسيه ميياس

كانت هذه هي العزلة

ترجمة

أحمد عبد اللطيف

رواية

مركز الحضارة العربية

كانت هذه هي العزلة

الرواية الحائزة على جائزة نادال الإسبانية كأفضل رواية سنة ١٩٩٠

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس: 3448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com
alhdara_alarabia@hotmail.com

تأليف
خوان خوسيه مياس

Y848642
17/10/07
<41526689>

ترجمة
أحمد عبد اللطيف

كانت هذه هي العزلة

رواية

"La soledad era esto"

مركز الحضارة العربية

الكتاب: **كانت هذه هي العزلة**
"La soledad era esto"

الكاتب: **خوان خوسيه مييَاس**

ترجمة: **أحمد عبد اللطيف**
(مصر)

الناشر: **مركز الحضارة العربية**

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠٠٧

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢١٤٧٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-790-4

الغلاف

لوحة الغلاف: للفنان: بيكاسو

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:
وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

مييَاس، خوان خوسيه.
كانت هذه هي العزلـــة/ La soledad era esto/ تأليف خوان خوسيه مييَاس؛ ترجمة أحمد عبد اللطيف. – ط١.
– الجيزة: مركز الحضـــارة العربيـــة للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٦.
١٢٨ص؛ ٢٠سم
تدمك: ٤-٧٩٠-٢٩١-٩٧٧
١- القصص الاسبانية
أ- عبد اللطيف، أحمد (مترجم)
ب- العنوان ٨٦٣

مقدمة المترجم

خوان خوسيه ميياس: هو أحد عباقرة الرواية الذين أهدتهم لنا إسبانيا في النصف الثاني من القرن العشرين، فهو كاتب من طراز ماركيز وكورتاثار وثيلا ومحفوظ من حيث الإبداع والتجديد، وإن اختلف معهم في أسلوب السرد والمدرسة القصصية التي ينتمي إليها. ولد في بالنثيا بإسبانيا سنة ١٩٤٦. وعندما بلغ السادسة من عمره انتقل إلى مدريد وأقام هناك منذ ذلك الحين. درس الفلسفة والآداب بجامعة كومبلوتنسي، ولم يمنعه عمله من أن يكرِّس جزءًا من وقته لعشقه الأول: الأدب.

ظهرت أولى رواياته سنة ١٩٧٤، وهي "**العقل هو الظل**" ونال عليها جائزة سيسامو. جاءت بعد ذلك رواية "**رؤية الغريق**" سنة ١٩٧٧ لتؤكد أنه من عمالقة الرواية. ثم توالت أعماله التي حظت باهتمام العامة والنقاد "**الحديقة الخالية**" سنة ١٩٨١، "**الورقة المبلولة**" سنة ١٩٨٣، "**الحرف الميت**" سنة ١٩٨٣، "**التباس الاسم**" سنة ١٩٨٨ و"**كانت هذه هي العزلة**" سنة ١٩٩٠، والتي نالت جائزة نادال في الرواية. ظهرت بعد ذلك رواية "**عائد إلى البيت**" التي نشرت فصولها في جريدة سول خلال صيف ١٩٩٠، ثم تجمعت بعد ذلك ونشرت في كتاب في أكتوبر من نفس العام. ثم جاءت "**إنها تتخيل**"، "**غبي وميت وابن حرام وغير مرئي**"، "**أقصوصات في الفضاء**"، "**ثلاث روايات قصيرة**"، "**الترتيب الأبجدي**"، "**الأرمل العاجزة وحكايات أخري**"، "**لا تنظر تحت السرير**" و"**المقال الأقصوص**" وهو نوع جديد في الأدب يعد مزيجًا

من المقال والقصة القصيرة. و"**أعداد فردية وزوجية وساذجة**"، "**امرأتان بالملابس الداخلية**"، "**حكايات زناة تائهين**"، "**هناك شيء ليس كما يقولون لي**"، "**كلها أسئلة**"، "**ماريا ومرثيدس**". وأخيرًا صدر له هذا العام "عين القفل"

والعنصر المشترك في كل روايات ميياس هو أن الأشخاص يتحركون في عالم واقعي وعالم خيالي، ويندمج العالمان بدون أي حدود واضحة حيث أن الصدفة تساعدهم من جانب وسخرية الحياة من جانب آخر ليجدوا حقيقة حياتهم، تلك الحياة التي نجد فيها حقيقة مزدوجة أو تشابه خيالي، كما هو الحال مع (إلينا رينكون) بطلة هذه الرواية ومع الأخوين التوءم في "عائد إلى البيت".

وبالنسبة لأسلوبه نجد أنه قد تخلى عن أي سطحية مستخدمًا القصص الموجزة ذات البساطة الظاهرة التي تختبئ ورائها تركيبة معقدة تحتاج إلى تعمق في التفكير لإدراكها كاملة.

كانت هذه هي العزلة

تبدأ الرواية بتسليط الضوء على "إلينا رينكون" وهي امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها، ماتت أمها حديثًا (ومات أبوها منذ سبع أو ثمان سنوات) وتقرر ألا تحضر دفن أمها، وتشعر بتوغل أمراض الشيخوخة في جسدها. تعتقد أن أثاثات غرفتها بها روح. ويغشى عليها داخل حمام إحدى الكافيتريات بدون أن تتقيأ.

جاء رد فعل "إلينا" باردًا أمام موت أمها، حيث أنها بالنسبة لها قد ماتت منذ زمنٍ بعيد.

يبدأ مؤلف الرواية بتسليط الضوء على البطلة وهي في غرفة الحمام، تزيل شعر قدمها، وهو الحدث الذي يستمر في واحدة من قدميها، القدم اليسرى حتى منتصف الرواية.

بدأت "إلينا" تشك في زوجها، فتقرر التعاقد مع وكالة استخبارات سرية لتطلع على كل تحركاته. بعد أيام قليلة تذهب إلى

بيت أمها، حديثة الوفاة، لتقسم مع أخويها "خوان ومرثيدس" الميراث المتواضع الذي تركته الأم. وهناك تجد الشيء السحري "مذكرات الأم" تلك الوريقات التي تساعدها على الانسلاخ من شخصيتها لترتدي شخصية أمها. ترث "إلينا" شيئين يتحولان بعد ذلك إلى رموز "الساعة والأريكة".

تبدأ "إلينا" في قراءة مذكرات أمها، وفي أثناء ذلك نجد زوجها "إنريكي" يتنزه على ساحل إليكانتي بصحبة سكرتيرته. تعرف "إلينا" هذا الحدث بعد ذلك من خلال تقرير المخبر السري.

حاولت "إلينا" أن تكتشف شخصية أمها عن طريق مذكراتها وعقدت معها علاقة تشابه، وعندما جاء الربيع شعرت بتحسن في صحتها، وطلبت تقاريرًا من المخبر فبعثها لها وكانت تتضمن آرائه الخاصة ومشاعره الداخلية، وقد كتبها بشكلٍ رائع. وعن طريق مذكرات الأم تعرف أنها قد اكتشفت "أمام مرآة غرفة الحمام بأحد الفنادق الأجنبية ورمها السرطاني" وبهذه النهاية المتوترة يغلق "ميياس" الجزء الأول.

في الجزء الثاني الذي يمكن تقسيمه إلى أربعة عشر جزءًا، بالرغم من أن المؤلف لم يقسّمه، تبدأ الأحداث في التطور المتشابك. يبدأ بالقرار الذي اتخذته "إلينا" بكتابة مذكراتها الخاصة، وتصبح بذلك هي الصوت الراوي. والانسلاخ من شخصيتها يبدو واضحًا. تزيل شعر قدمها اليسرى، تقلع جزئيًا عن الحشيش، ثم تعود لتعدّل اتفاقها مع المخبر السري: عليه أن يراقبها هي لا زوجها. تسافر إلى بروكسيل – انسلاخ جديد لشخصية أمها التي سافرت إلى بلد أجنبي واكتشفت هناك ورمها السرطاني. وكانت بصحبة زوجها الذي تتركه سريعًا وبشكل نهائي وتعود إلى مدريد لتبدأ حياتها الجديدة كإنسانة أخرى. تتصل هاتفيًا بالمخبر ليبدأ في مراقبتها، وتتصل بابنتها التي انقطعت علاقتها بها منذ زمنٍ بعيد،

وتقص شعرها. تقرر أن تعيش في إجازه من الزمن وتكتب مذكراتها "السطور الأخيرة من حياتها".

موضوعات الرواية

(١) **العزلة**: وهو الموضوع الذي نجده في أغلب روايات المؤلف ولكنه هنا يتميز بتكثيف الأفكار والمشاعر، ويشكل جزءًا من عنوان الرواية. لقد وجدت البطلة نفسها أمام أزمة وجودية، فقررت أن تهرب من الواقع لتكتب مذكراتها، تكتب خلاصة أفكارها ومشاعرها ".. إذن كانت هذه هي العزلة، أن تجدي نفسك فجأة في هذا العالم، كأنك قد جئتي حديثًا من كوكب آخر، بدون أن تعرفي لماذا طردوك منه" إن المشكلة الحقيقية تكمن في الاتصال البشري وهو نقطة المنتصف بين الوحدة والآخرين، هذه المشكلة نجدها هنا مطروحة بكل بروز.

(٢) **السياسة**: التي تتجسد في شخصية "إنريكي"، زوجها، وهنا نجد المؤلف يتبنى حقيقة تاريخية لإسبانيا في الستينيات "حركات طلابية" وفي الثمانينيات "الحزب اليساري الذي ابتلعته الأحزاب الأخرى التي تشغل السلطة في الوقت الحالي".

نجد أيضًا موضوع "القرين" "الآخر" هذا الموضوع الذي اعتمد على صدفة التشابه، وقد بدأ هذا الموضوع واضحًا من بداية الرواية "أين نصف حياتي؟".

والرواية من حيث التقنية تحتوي على عنصرين هامين:-

١- اعتيادي: وهو التكرار كوسيلة أسلوبية.

٢- حديث: وهو تعدد الأصوات الراوية. حيث نجد صوت الراوي العالم بكل شيء وهو المؤلف الذي يعرف فيما تفكر شخصياته، كيف يتحركون، بماذا يشعرون؟

وصوت الأم عن طريق مذكراتها، والتي أصبحت برغم موتها، عنصرًا هامًا في تركيبة الرواية. وصوت المخبر السري عن

طريق تقاريره التي بعثت في نفس البطلة شعورًا بالبهجة والتفاؤل، لأنه يمثل صوت الضمير في مجتمعها. هذا بالإضافة إلى صوت "إلينا" الذي يشغل حيزًا كبيرًا من الجزء الثاني.

ونلاحظ استخدام المؤلف للأسلوب المباشر بالطريقة التقليدية الواضحة. وبالنسبة للمكان فقد اختار واحدًا من أماكنه المفضلة لتدور فيه الأحداث. الأماكن الداخلية.

عناصر تشابه

نجد في هذه الرواية عناصر تشابه بين حياة المؤلف الخاصة وبين حياة شخصياته.

(١) تشابه بينه وبين المخبر السري: فقد درس "ميياس" الفلسفة وعمل كأديب، ودرس المخبر القانون وعمل مخبرًا سريًا.

(٢) العلاقة بين "إنريكي" و"إلينا": تشابه العلاقة بين "ميياس" و"مارجريتا" زوجته الأولى، حيث تعرف عليها في كلية الفلسفة والآداب بجامعة كومبلوتنسي، وفشل زواجهما في بداية الثمانينيات.

و"ميياس" هو صوت المخبر الذي ينتقد السياسة الإسبانية في عقد الثمانينيات، ويصف نوع الشخصية التي ينتسب إليه "إنريكي" بأنه "وصولي، متسلق" "أصبحوا يشغلون مكاتب السلطة ومجالس الإدارة والعناوين الرئيسية التي جعلت الناس ينسون أصولهم، كما نسيتها أنا" "إنهم مجموعة تيوس، أبناء عاهرات، و"إنريكي" على رأسهم لأنه نقيضي لأنه عدوي".

إن المعنى العام للرواية هو إبراز العلاقة بين العزلة والحياة الاجتماعية السياسية لإسبانيا الحالية، والمؤلف ينقد العالم السياسي وأعضاءه الذين يشبهون "إنريكي أكوستا" "رجل من الأوباش".

ويمكننا أن نقرأ في نهاية الرواية منظور "إلينا" للمجتمع "إنهم يعيشون في كابوس ويشعرون أنهم صنّاعه"

"هل كان يرغب حقيقةً في تبديل غرفته المرفهــة المريحة والمكوَّنة من أثاث متناسق بصحراء يستطيع من خلالها التحرك في كل الاتجاهات بدونِ أي موانع وأن ينسى في الوقت نفسه، سريعًا وكليــةً، ماضــيه كإنسان؟"

فرانتس كافكا

رواية: التحول

الجـزء الأول

(١)

كانت "إلينا" تزيل شعر قدمها في غرفة الحمام عندما دق الهاتف وأخبروها أن أمها قد ماتت. نظرت في الساعة بطريقة تلقائية وحاولت حفظ الميعاد في ذاكرتها. الساعة السادسة والنصف بعد الظهر.

وبالرغم من أن ساعات اليوم بدأت تطول، إلا أنه كان يبدو أن الليل قد حلّ بسبب الغيوم التي تجمعت منذ الظهيرة وكونت سقفًا فوق المدينة. إنها أحسن ساعة للخروج من هذا العالم – فكرت في ذلك – بينما أخذت الهاتف لتستمع لزوجها على الجانب الآخر.

كان زوجها يحاول أن يكون فعَّالاً وحنونًا في الوقت نفسه.

- سآتي لأصطحبك معي– قال– ونذهب سويًا إلى المستشفى. أخوكِ هناك.

- وأختي؟ – سألت – من يخبرها؟

- لقد أخبرت زوجها وسيأتيان هذه الليلة في طائرة الساعة العاشرة القادمة من برشلونة. لا تشغلي نفسك بهذه المسائل. جهزي نفسك وانتظريني حتى آتي.

وضعت "إلينا" السماعة وجلست على الأريكة لتهضم الخبر. بدأت بعد ذلك في إزالة قشر الشمع بيدها اليمنى، هذا الشمع الذي تستخدمه في إزالة شعر جسدها. في أثناء ذلك كانت تتجول حوائط الصالون بعينيها دون أن تنتبه لشيء مما كانت تراه.

عندما عادت إلى الحمام، كان الشمع قد تجمد، بحيث أبعدت عن

رأسها فكرة إزالة شعر قدمها اليسرى. قلعت الروب، ودخلت لتغتسل بالدش، في موقف يوحي بالأسى، لكنها لم تصل لحد البكاء. الآن تتأكد من فكرتها القديمة عن موت أمها. عندما سيحدث سيكون إجراءً روتينيًا، ورقة تأتي لتقر بشيء قد حدث، ذلك لأن أمها قد ماتت منذ زمنٍ بعيد في عينيها.

ارتدت جوارب سوداء حتى لا يلاحظ أحد شعر قدمها اليسرى، وارتدت ملابس داخلية مثيرة حتى تكذِّب أمام نفسها الألم الذي يعبر عنه الفستان الأسود الذي أخرجته من قاع الدولاب.

فضلت ألا تضع مكياجًا وألا ترسم عينيها، لكنها مشطت شعرها وجعلته مسترسلاً على ظهرها. كانت لا تريد أن يكون منظرها باعثًا للحزن، فقط كانت تريد أن تكون غير مهندمة لتظهر أنها أسرعت في الخروج عقب معرفتها الخبر.

فكرت أن تضع أحمرًا لشفتيها، ولكنها قررت في النهاية أنها كما هي تبدو جميلة، على الرغم من أن جمالها بدأ في الانهيار، فهي قد تخطت الثالثة والأربعين. ثلاثة وأربعون عامًا لم يستطيعوا أن يطفئوا بريق عينيها، ولا إشارة التحدي الكامنة فوق شفتيها. عوجت جيبتها، لتؤكد الإحساس بالخروج سريعًا. عادت إلى الصالون وجلست بالقرب من النافذة وأشعلت سيجارة حشيش، متأملة اهتزازات الضوء.

كانت تسكن في شقة راقية في منطقة شمال مدريد، من خلالها كانت ترى منظرًا حضريًا يبدو أ نه يتغير من حيث الشكل مع نغمية الشهور. الآن هي في شهر فبراير، المنظر معتم، بحيث نجد المباني بأضواء النوافذ المشتعلة تدعو إلى الاستجمام.

فكرت في ابنتها "مرثيدس"، لكنها كبحت رغبتها في الاتصال

بها لأنها تخيلت أن زوجها قد قام بإبلاغها. عندما أطفأت السيجارة بدأت في إعداد خواطر لامعة ومأساوية تتناسب مع الفقدان الذي تعرضت له، لكن لم يخطر شيء على بالها. كان يبدو لها أن موت الأم، غير أنه حدث، هو فعل مرتبط بتسلسل الأيام، ليس له مقدرة على بناء قطيعة أو تحقيق نصر على ما هو اعتيادي. بدأت تشعر بضربات الحشيش في مؤخرة رأسها وتخيَّلت المشاهد التي ستشترك فيها مجبرة خلال الساعات القادمة، عليها أن تكون بجانب الأموات، في هذا المكان الذي ستسكن فيه الأم والذي من خلاله سترى تغيرات الحياة بلا أي إحساس، بلا كره أو حب، بنظرة محايدة، مليئة باللامبالاة، بالرغم من أنها متحفزة بفضول يجعلها تهتم بالأشياء الميكانيكية التي تنتجها المشاعر.

في هذه اللحظات وصل "إنريكي" زوجها، أخذها بين ذراعيه بشكلٍ مدهش، محاولاً تخفيف ألمها الذي لم يصل بعد. ابتسمت "إلينا" بعاطفة. أنت تعرف إحساسي بموت أمي، قالت له. لا أصدق كل ما يقال، أجابها.

كانت "إلينا" خائفة من ذهاب تأثير الحشيش عليها، لذا أشعلت سيجارة أخرى بحجة تقديمها "لإنريكي". سندخنها في السيارة، قال "إنريكي"وخرجا.

كانت أمها مبتسمة لآخر لحظة في حياتها. كانت ترتدي كفنها الأبيض الذي يذكرنا بزي الراهبات، وبين ثناياه كان وجهها بارزًا، وكأن الموت جاء ليجمله. ظلت ثابتة كجثة، لكن جبهتها المتغضنة كانت محتفظة بضغط التفكير.

كانت إحدى عينيها مفتوحة برقة، تاركة على وجهها نفس الانفعال الذي يذكر إلينا بقدمها اليسرى ذات الشعر.

هل الواقع متشابه؟ أم أن التشابه خيال ناتج عن تفكير الإنسان؟ هل كل ما يمكن تقسيمه إلى نصفين يؤدي إلى تكوين جزء ين منسجمين ومتشابهين؟ أين نصف حياتي إذن؟ قالت ذلك وهي تتأمل ابنتها التي تصافح الأقارب والأصدقاء باحترام يغلفه الحزن. هل تركت أمي فراغًا يشبه الذي أملأه الآن؟ هل يترك الموتى انعكاسًا لذاتهم في هذا العالم المليء بالألم؟ أي إحساس يشبه الإحساس بالألم؟

الجمل الأخيرةٍ سببت لها نوع من الرضا، لكن حالتها النفسية كانت تتجه عامةً ناحية اللامبالاة. تخيل، كنت أزيل شعر قدمي، اعترفت بذلك لشخصٍ ما تقرب إليها ليُقبّلها.

كان لقاؤها مع أخيها شيئًا محفزًا، حيث أن أحضانه كانت تقيد الأحاسيس التي يشعران بها. وفي المناسبات، مثل هذه المناسبة يبرزان ما يحتويان بعيدًا عن رقابة الحياء. مع ذلك كانت أختها باردة وبعيدة كما كانت مع "إلينا "منذ طفولتها.

أما ابنتها "مرثيدس" فإلى الآن لم تقترب منها، لكنها تبعث إليها نظرات مغلفة بالحقد، تحاول "إلينا" أن تتجاهلها. أمها وابنتها لهما نفس الاسم، وهنا كان يوجد تشابه ربما يرمز لأشياء أخرى ذات مضمون أكبر. كل منهما اعتاد أن يعبر بالنظرات وأن يعاقب بالابتعاد. أنا مركز هذه العلاقة المتشابهة، أنا قلبها، أنا غذاؤها. كيف حالك يا أمي؟ قالت ابنتها بعد أن اقتربت منها أخيرًا وأعطتها قبلة. تخيلي كنت أزيل شعر قدمي عندما دق الهاتف، تركت كل شيء في المنتصف، فخذي وكل شيء. اعتقدت أن كلمة "فخذ" مستخدمة جيدًا في هذا النص الجنائزي. اذهبي أنت لتستريحي لو أردتي، سأبقى أنا وزوجي هنا هذه الليلة، قالت لها ابنتها. يجب عمل أشياء كثيرة، الأوراق وهذه الأشياء. كل شيء انتهى يا أمي، لا تشغلي بالك.

هناك تشابه آخر، أنا مثل أختي، ليس عندي المقدرة على صنع أذى كل منهما ينسبه لي. أختي أيضًا اسمها "مرثيدس" مثل أمي ومثل ابنتي. وأنا مثل من؟ مَنْ مِنْ هؤلاء الأشخاص أشبهه؟ أي من هذه الوجوه الحزينة يسمى "إلينا" وله قدم بشعر؟ هل أنا هوامش لشخصية أخرى أم أني فقط النصف غير المعتدل؟ ماذا يجب عليَّ نحوهن؟ ماذا يجب علي تجاه أولئك النسوة اللاتي لم أكافئهن حتى الآن؟ واحدة منهن نغصت علي حياتي في شبابي والأخرى أصبحت شابة بعد أن بدأت أنا في الانحدار. كفى فكل شيء على حالته. أمي ماتت، ووضعت وراء هذا الزجاج الذي يحمي الموتى من الأحياء. الأقارب والأصدقاء يبدون حزناء، زوجي يمد يده ليصافح الجميع بكفاءة راقية، وأنا أنتقل من مكانٍ إلى آخر بعينين مجففتين وجيبة معوجة وقدم يسرى مليئة بالشعر. يكفيني ارتداء ملابس داخلية. موت الآباء يغير منظورنا للحياة، قال لها شخص في أ ذنها عندما قبلها في خدها، وتقرَّب منها بشدة. أجابته "إلينا" بابتسامة طارئة، وابتعدت عن محيط هذا الاحتفال الجنائزي.

في هذه الليلة نامت "إلينا" جيدًا، وقد يفسر ذلك بأنها أدركت النوم بكل حواسها، ولم تجد عندما استيقظت أي علامة من علامات النوم التي اعتادتها. لم تفقد بعض الوعي عندما استيقظت، لكنها أحست بشيء غريب يدخل على حياتها الخاصة، شيء كان يجب أن يدخلها منذ اللحظات الأولى من هذا اليوم الذي وضع فيه جسد أمها في النعش. كان "إنريكي" زوجها في غرفة الحمام، تحت الدش الذي يصل صوته إلى غرفة النوم كما لو كان صدى لمطر بعيد. حاولت إنقاذ جزء من الليل، لكنها لم تجد شيئًا سوى بصمة جسدها فوق السرير كدليل أوحد على أنها استمرت فوقه خلال الساعات السوداء. كانت ترتدي بيجامة زوجها، كانت واسعة

عليها، لكنها كانت تحب ذلك لأنها تعطي لأعضائها حرية التحرك بداخلها. فهي في الواقع، ومنذ زمن بعيد، تستخدم ملابس الرجال للنوم. تقول إنها تشتريها لزوجها، لكنها في الحقيقة تشتريها لنفسها.

نهضت، ولاحظت أنه يتملكها إحساس بالكمال، ناتج عن شيء غريب. ربما حدث لها أثناء الليل شيء لم تدركه يفسر الآن بأنه تفاؤل جسماني استعدادًا ليوم الحداد.

لم يكن "إنريكي" بالحمام عرفت الآن أن ما كانت تسمعه وهي في سريرها لم يكن صوت الدش، وإنما هو مطر حقيقي كان ينزل على الجانب الآخر من الزجاج. المطر والموت. ذهبت إلى الصالون وأطلت من الشرفة. كانت درجة الحرارة مرتفعة وبدأ الجو في النقاء. أخذت نفسًا عميقًا وأحست أن الهواء الرطب قد توغل في أعماق رئتيها، ونتج عن ذلك المؤثر الكيميائي أن تقوي لديها إحساسها بالكمال الذي استيقظت به.

- أعددت لكِ فنجان قهوة - قال لها "إنريكي" من خلفها.

- إنه يوم سيئ للدفن - أجابته "إلينا".

- ليس هناك يوم حسن لهذه الأشياء. قال هو.

دخلا بعد ذلك في صمت معتاد في علاقتهما بينما كانا يتأملان المطر المتساقط بألفة فوق سقف من الخشب وواجهات البيوت. أشياء كانت تشكل المنظر الحضري الذي كان خاصًا بهما.

بعد أن تناولت "إلينا" فنجان القهوة، دخلت الحمام، خلعت ملابسها لتغتسل، لكنها لاحظت حينئذٍ شعر قدمها اليسرى، وبشكل غير مفهوم بدأت في البكاء على حوض الحمام. قامت بحركتين أو ثلاث بعضلات وجهها لترى إذا كانت قادرة على السيطرة على نفسها، لكن عينيها كانتا تزرفان بتلقائية دموعًا فياضة. هاجمها وسواس

لتترك نفسها في هذه الحالة الخاصة بإنتاج الدموع، لكنها قامت برد فعل عنيف لكي تنتصر على الحزن الذي يتناسب مع الآخرين.

كل شيء أصبح مختلفًا عندما اغتسلت بالدش. الكمال الذي كانت تشعر به قبل ذلك هجرها، تاركًا في داخلها مكانًا خاليًا بدأ يملأه في الحال إحساس آخر من الصعب أن نجد له مسمى.إحساس كان يدفعها بسرعةٍ ما إلى الانسياق.

تذكرت أباها الذي مات منذ سبع أو ثمان سنوات. وربما لأول مرة في حياتها تشعر أن كلمة "يتيمة" لها معنى فظيع.

قررت أن تزيل شعر قدمها، لكن سريعًا ما هاجمتها دفعة خرافية نصحتها ألا تفعل ذلك. حينئذٍ فكرت أنه عليها أن تحدث ابنتها عبر الهاتف، في هذه المؤسسة التي تقوم بتجهيز الموتى ودفنهم، لتسألها كيف حال الجثة؟ هذه الفكرة جعلتها تبتسم ابتسامة قصيرة، لكنها منذ هذه اللحظة عرفت شيئًا كان يخصها قد حدث في اليوم السابق، بالرغم من أنها تجهل مضمون هذا الحدث وطريقة فعله التي قد تؤثر على وجودها. بعد ذلك فكرت أن زوجها لم يكن طيبًا، كان عليه أن يعرض أن يبقى بجانب الجثة. في أثناء كل هذا كانت تمشط شعرها، كما لو كانت في انتظار قرار لتحديد المصير لم يأت بعد. أخيرًا، قررت ألا تذهب إلى الدفن. من الممكن أن يقول لهم "إنريكي" إنني قد قضيت ليلة مرهقة، وفي ساعات الفجر كنت أعاني من القولون. يقول إنني كنت أرغب أن آت رغم كل شيء، لكنه منعني. عليه أن يشرح ذلك لكل الناس، بالرغم من أن لا أختي ولا ابنتي، المسميتان "بمرثيدس"، ستصدقان ذلك.

(٢)

بعد يوم الدفن مضت عدة أيام تميزت بالهدوء المنكسر. أمطرت السماء مطرًا غير غزير، كما لو كان عادةً تحدث تكنيكيًا لكن بدون اقتناع. كان الماء يتساقط بسلاسة في حبات صغيرة فوق الأسقف والشوارع، وفوق العابرين الذين يستقبلونه بكل طاعة وخضوع. أما "إلينا" التي لم تزل شعر قدمها اليسرى إلى الآن، فكانت تتأمل المطر من نافذة الصالون أو من غرفة النوم، أيضًا بهدوءٍ منكسر.

كان شهر فبراير على وشك الانتهاء بلا ضجيج. وفجأة، بدأ اسم الشهور يكتسب معنى جديد. أطلقت "إلينا" على مارس اسم أمل الشمس، والرغبة التي يبتعد الواقع عن إظهارها بهذه النبرات السوداء، التي كان يبدو أن الانتقام يختبئ خلفها.

كان يبدو أن النيش، الموجود بالصالون والذي تحتفظ فيه بأواني المائدة، قد حصل بالرطوبة درجة وجودها العضوي غير المفسر. عندما لاحظته عن بُعد، كان يبدو أنه غيَّر درجة لونه القاتم، كما لو كان يعطي إشارات متجهة للأريكة. من ناحية أخرى، أيضًا عن بعد، كان يعطي انطباعًا أنه يعرق، كما لو كان بداخل الخشب تحدث عملية كيميائية نتيجتها ستكون طرد روح الفكاهة. كان هذا الإحساس يبتعد ويختفي عندما كانت "إلينا" تقترب من الأثاث وتلمسه. على أية حال، شرعت في فتح أبواب هذا الأثاث بكل نفور.

ذات يوم استقبلت مكالمة هاتفية من أختها "مرثيدس"، كان يبدو

أنها ترغب في الانتهاء من الوصول لاتفاق بخصوص تقسيم الإرث. أشارت لها "إلينا" أنه من المناسب أن تتحدث مع "خوان"، أخو كلٍ منهما. فأخبرتها "مرثيدس" أنها قد اتصلت به واتفقت معه على بعض الأشياء الأساسية.

- إذا لم يكن لدى أي منا رغبة في امتلاك بيت أمنا – علينا أن نبيعه – قالت أختها.

- اتفقنا – أجابتها "إلينا".

- ألاحظ أنك في حالة غريبة، هل حدث لك شيء؟

- عادت لي هذه الآلام مرة أخرى. أنا مُتعَبة.

قالت لها أختها بعض النصائح، ووعدتها بالحضور إلى مدريد في نهاية الأسبوع القادم، ليدخلوا جميعًا بيت الأم ويفرغوه قبل عرضه للبيع. كانت تتحدث عن تقسيم الأثاث والأشياء الموجودة بالبيت، هذا البيت الذي كان في يوم من الأيام بيتهم جميعًا. كانت نبرة صوتها تُشعِر "إلينا" بأنها عملية سلب.

في هذه الليلة كان القولون يؤلمها، وفي اليوم التالي نهضت منهكة. ذهب زوجها إلى العمل. تناولت إفطارها، دخنت سيجارة حشيش، عادت لتنام مرة أخرى. كان السرير باردًا، فقررت ألا تخلع الروب. لم تستطع أن تصالح النعاس بالرغم من إرهاقها وتأثيرات الحشيش التي تُرخي الجسد، وكان أرقها ناتج عن مجيء مجموعة صور متعاقبة في خيالها لم تستطع السيطرة عليها. كانت مجموعة صور خالية من التفكير أو التأمل، لكنها كانت تحتوي على شيء قادر على استثارة غم زائد امتدت تأثيراته لتتمركز في البطن. اعتقدت أنها لو تقيأت ستتحسن حالتها، لكنها عجزت عن النهوض حيث أنها شعرت بالدوار وملأها الخوف من أن تسقط على الأرض. وأخيرًا عندما

وصل تعبها إلى حدٍ لا يمكن احتماله استوت في مجلسها، ووضعت قدميها على الأرض. حينئذٍ لاحظت اختناقها وبدأت في تصبب العرق في نفس الوقت الذي شعرت فيه بإنهاك أعضائها. بعد لحظات فقدت خوفها، وسريعًا ما فقدت وعيها لتقع بجانبها على السرير تاركة أقدامها خارجة، قريبة من الأرض. قبل أن يحدث ذلك شعرت لمدة ثانية أو ثانيتين بسعادة مطلقة، وبدا لها أن الهاتف يرن، لكن هذا لم يهمها، وسريعًا ما دخلت في عالم النسيان.

استيقظت بعد ذلك بنصف ساعة، شعرت بقشعريرة برد، لكنها متعافية من الإغماء السابق. تدثرت ببطانية وملاءة، وأشعلت سيجارة لترى إن كانت قادرة على احتمالها أم لا. وتحققت من ذلك برضى جعلها سعيدة بعض الشيء.

كان العرق قد تبخر، وفكرت بلذة في أخذ حمام ساخن. كان ألم بطنها مستمرًا في مكانه لكنه ضعف بشكلٍ ملحوظ. القولون – قالت – لم ينته بعد من تنظيف أمعائي.

نهضت في ساعة الظهيرة، ورتبت البيت قبل أي شيء. اعتاد زوجها أن يتناول غداءه بالخارج، والخادمة لا تأتي إلا مرتين في الأسبوع. كان يومها فارغًا، لذلك قررت أن تخرج لتستنشق الهواء، لأنها إلى الآن ما زالت تشعر باحتياجها له.

مع ذلك فقدت رغبتها في أخذ حمام، وأثناء ارتدائها للملابس أحست أنها قذرة. لفت سيجارة حشيش قبل أن تخرج، فربما تحتاج أن تدخنها أثناء وجودها في الشارع.

انتهى المطر، لكن الضباب ما زال موجودًا. كان يومًا معتمًا ونقيًا، وكانت لديها رغبة في أن تستنشق هواءً رطبًا. سارت مصادفةً في اتجاه شارع "فرانثيسكو سيلبيلا"، وتأكدت أن قدميها

تسيران بقوة نسبية. توقفت بدون أي حماس أمام فاترينة محلين أو ثلاث وبدأت فجأة تشعر بالجوع. فكرت في أن تتناول واحدة من أطعمتها المفضلة، ولاحظت أن معدتها على استعداد كبير لذلك. فكرة أن تأكل بعثت في نفسها السرور. دخلت كافيتريا لها واجهة أنيقة، جلست فوق مقعد بلا مسند، طلبت طبقًا مشكلاً وزجاجة بيرة. كانت تشعر بالعطش، وقد سببت لها الرشفة الأولى المليئة بالرغوة – قشعريرة لذيذة. أمام مقعدها كانت توجد مرآة، أشارت لها أنها خرجت من البيت دون أن ترسم عينيها، وأن شعرها أشعث. كل هذا بالإضافة لشعر قدمها اليسرى والخروج بدون اغتسال، شكل أمام عينيها صورة جسد قذر، لكن هذه التفاصيل وهذه الصورة جعلتها تبتسم لأنه لا أحد في هذا المكان يعلم هذه التفاصيل، بالإضافة إلى أنها أنيقة في ملبسها، بحيث يبدو مستحيلاً أن يشك أحد في حالة نظافتها. كان هذا بمثابة سر بينها وبين مرآتها. كانت الكافيتريا مجهزة بموسيقى، وبدأت تبث إحدى أغانيها، واحدة من أغنيات "بيتلز"، قامت "إلينا" بترجمتها داخل نفسها.

تخيَّل نفسك داخل زورق، داخل نهر محاط بأشجار اليوسفي وسماء من المربى. شخص ما يناديك، ترد عليه ببطء. زهور من السلوفان الأصفر والأخضر يطلون فوق رأسك.. تاكسيات من ورق الجرائد تظهر على الشاطئ، تنتظرك لتحملك معها.

جعلتها هذه الأغنية في حالة نشوة، وأعاد لها فنجان القهوة جزء من الكمال الجسدي الذي قد نسيته. لكن، عندما خرجت إلى الشارع، ورأت المشاة، ونظرت لإشارات المرور وحركته المتثاقلة، شعرت مرة أخرى أنه الواقع المحكوم عليه بالإعدام.

أشعلت سيجارة الحشيش، ونزلت في شارع "ماريا دي مولينا" متجهة إلى شارع "كاستيانا". تركزت تأثيرات الحشيش في جبهتها،

تخيلت أن جبهتها من الزجاج، تستطيع من خلاله رؤية عجين دماغها ذات الألوان الخضراء والصفراء، ألوان تطور بعد ذلك وبطريقة غير محسوسة، إلى البني والأسود. كررت في ذهنها مقطع من الأغنية (تخيل أنك في قطار، في محطة مع بوابين من العجين، ترتدي ربطة عنق من الزجاج، شخص ما يظهر في نافذة التذاكر). لكن الكمال الذي كانت تشعر به سابقًا تركها الآن وحل محله ضيق كان يتسع ليتركز في أعضاء جسدها الداخلية، وخاصة المعدة. بدأت تشعر بشيء من الدوار، أرجعت سببه إلى سوء الهضم. فكرت أنها لو استطاعت أن تتقيأ وتفرغ أمعائها ستستعيد إحساسها السابق، لكنها لم تكن ترى حولها أي كافيتريا. دخلت في شارع جانبي، ثم في حضانة أطفال، وجدت بابها مفتوحًا. تقاطعت خطواتها مع بعض البالغين الذين اعتقدوا أنها أمًا لأحد الأطفال، فلم يقولوا لها شيئًا، بالرغم من أنهم نظروا لها باستغراب. وأخيرًا، عندما شعرت أنها على وشك التقيؤ، دفعت باب الدخول للحمامات ودخلت سريعًا في إحداها. جلست "إلينا" وأسندت خلفية رأسها على الحائط، وعانت من هبوط في ضغط الدم بدون أن تتقيأ. وعندما أحست أنها استعادت نشاطها، أمكنها إنزال الجيبة واللباس التحتي والجوارب الطويلة، لقد حققت ما أريد، فكرت، كل شيء انتهى لقد حققت ما أريد. لكن كان يبدو أن الأمعاء غير مستعدة للعمل، بحيث أن ضيق صدرها لم يهبط مباشرة، بالرغم من جهود "إلينا" لطرده من جسدها. فكرت أن تتقيأ، لكنها أدركت أنها ستفقد الوعي لو غيَّرت من وضعها. وفي أثناء ذلك، دارت في ذهنها سلسلة من الصور الموضوعة بجانب بعضها. القدم المشعرة، الشوارع الرطبة، إشارات المرور المكسورة، رجل من الصلصال، نهر من المربى، مراكب من الكراملة، جثة أمها الملفوفة في سيلوفان أصفر

وأخضر. اكتسبت سرعة الصور في الحال إيقاعًا زائدًا، احتملته "إلينا" بعينين مفتوحتين وأظافر مغروزة في فخذها، أحست بموجة من الحر، شبيهة بهذه الموجات التي تأتي عادةً عند الإغماء، صعدت من بطنها إلى وجهها، وتحولت إلى عرق فائض. عندما كانت على وشك أن تفقد الوعي، هبطت السرعة. فتحت "إلينا" فمها لتأخذ أكبر قدر ممكن من الهواء، وكانت تقول لنفسها: لقد انتهى كل شيء، لقد تخطاني، هذا هو الجنون وقد تخطاني.

في أثناء ذلك سمعت صرخات طفولية بالخارج واستنتجت أن الأطفال قد خرجوا من الفصل، وبالفعل بدأوا يطرقون باب حمامها في الحال. دفعت قدميها بكل ما هو ممكن، وتنفست بعمق، بينما كانت تحاول أن تحدد هل ما حدث لها شيء مرعب أم شيء مضحك؟ لم يكن لديها الوقت لتقرر، لأن الجنون، المرتبط بسرعة الصور، عاد إلى رأسها مرة أخرى. كتمت أنفاسها وركزت كل طاقتها في منطقة البطن، حيث بدا لها أنه مكان الألم. لكنها لم تنل شيئًا. وعندما فتحت عينيها، رأت رأس طفلة تطل عليها من المكان الخالي بين الأرض والباب. تبادلا النظر لعدة ثواني، بعدها انسحبت الطفلة. بعد ذلك سمعت صوتًا صارخًا: هناك سيدة بيضاء بالداخل. حينئذ نهضت، فتحت الباب، حاولت الخروج، لكن الجوارب الطويلة الملفوفة على كعبيها جعلتها تفقد اتزانها.وبينما كانت تقع، قبل ثواني من فقدان الوعي، كانت سعيدة جدًا لشعورها أنها ستترك في أيدي الآخرين مسئولية تشغيل جسدها.

استيقظت في الحال، غارقة في عرقها. كان الجنون قد تخطاها وانسحب، وضيق صدرها قد اختفى، أو تحلل في العرق المتصبب فوق جبهتها. قدمت نفسها، اعتذرت، أكدت أنها مشكلة عسر هضم لا تعرف من أين جاءت.

- لأنك أنيقة في ملابسك – قالوا لها – إذا لم تكوني كذلك كنا سنبلغ الشرطة، وكانت ستحدث أشياء كثيرة.

أعطوها تفاحة، وطلبوا لها بالهاتف سيارة أجرة، وصلت في خلال خمس دقائق.كانت تمطر مرة أخرى بالخارج، أو كانت الرطوبة تشعرها بوجود المطر. كانت "إلينا" تشعر أنها رشيقة بل ومتفائلة، وكانت هذه هي عادتها بعد أن تفيق من الإغماء، على أية حال، عند وصولها للبيت نامت، وظلت نائمة حتى عاد "إنريكي" زوجها، من العمل.

- هل تعانين من شيء؟ سأل.

- نفس الآلام تعود مرة أخرى.

- لماذا لا تذهبي للطبيب؟ ألح "إنريكي" بإشارة توحي بالصبر.

- لقد ذهبت إلى كل الأطباء، وقالوا لي أني لست مريضة بشيء. أجابته "إلينا" بنبرة غاضبة.

قرر "إنريكي" ألا يلح عليها، واكتفى بأن يعرفها أنه سيقضي أجازه نهاية الأسبوع بالخارج لإنهاء أعماله.

- ومنذ متى تعملون في إجازة نهاية الأسبوع؟

- إنها اتفاقيات على بيع، وهذه الأشياء تتم عادةً في أيام الإجازات.

بدأت "إلينا" تشك في أشياء أخرى. وفجأة احتوتها فكرة أن "إنريكي" يخونها، فشعرت بالغضب، لكنها لم تقل شيئًا. قضت معظم ساعات الليل مستيقظة، وخطرت ببالها خطة ساعدتها على النهوض من السرير في اليوم التالي. وبما أنه كان يوم جمعة، كان عليها أن تتصرف بسرعة. بحيث أنها بعد أن تناولت إفطارها، ذهبت إلى أقرب مكتب بريد وأخذت رقم صندوقه. عادت بعد ذلك إلى البيت، وبعد أن أعطت للخادمة بعض التعليمات، أخذت دليل التليفونات

وأغلقت عليها الغرفة. بحثت عن وكالة استخبارات سرية، وبعد أن راجعت ذهنيًا السيناريو الذي قد أعدته ليلة أمس، اتصلت:-

- صباح الخير - قالت - أريد أن أتحدث مع المدير.

- أنا المدير - أجابها رجل من الجانب الآخر.

كانت "إلينا" على وشك أن تضع السماعة، لأن كلمة "أنا المدير" لم تعجبها، بالإضافة لذلك، فالسماعة قد رُفِعت سريعًا، ورد هو، وليست السكرتيرة، الشيء الذي جعلها تخاف أن تكون وكالة قليلة الإمكانيات. في النهاية قررت أن تواصل المكالمة.

- أريد أن أكلفك بمهمة حساسة وغريبة.

- ولماذا غريبة؟ - سأل الصوت من الجانب الآخر.

- لأنك لا يجب أن تعرف من هو الشخص الذي يكلفك بالمهمة، أنا سكرتيرة العميل، وهو رجل معروف في الدوائر المالية والسياسية، يرغب أن يكون اسمه بعيدًا عن الموضوع.

شرحت له "إلينا" نوع المهمة، وأعطته بيانات زوجها، وأضافت إلى أن عليه أن يقدم تقريرًا مفصلاً عن نشاط هذا الهدف خلال إجازة نهاية الأسبوع القادمة. وبدا أن مدير الوكالة يكتب ملحوظات عن كل شيء، لكنه ألح أنه من الضروري أن يعرف العميل. كانت "إلينا" حازمة.

- قلت لك إن هذا غير ممكن. ستكون وسيلة الاتصال بيننا هي صندوق البريد الذي أشرت لك عليه. عليك أن تبعث التقارير عليه، وبالنسبة للأتعاب سأضعها لك في رقم حسابك في البنك الذي تأمرني به.

- عليك أن تدفعي عربونًا أولاً.

- سأضع لك غدًا في حسابكِ ما تراه مناسبًا.

كان هذا التأمين الاقتصادي كفيلا بأن يقصـــي شـــكوك مـــدير الوكالة، فوعدها بإرسال التقرير يوم الاثنين. وعندما وضعت "إلينا" السماعة، شعرت أنها قد أدخلت في حياتها عنصرًا ذا حافز مهـــم، وساعدها هذا على أن تضع في المنطقة الخالية من ذاكرتها حدث اليوم السابق. على أية حال، قررت أن تقلع عن تدخين الحشـــيش خارج المنزل.

نامت في هذه الليلة جيدًا، واستيقظت عنـــد الفجـــر وجســـدها مستريح بما فيه الكفاية. وفي الساعة الثانية عشر صباحًا، عنـــدما خرجت لتضع المبلغ المطلوب للوكالة، لم تكن تشعر بأي ضيق إلا من مشتقات الغازات المتراكمة بشكل زائد، على ارتفاع اثنى عشر مترًا من حولها.

(٣)

يوم الأحد. نهضت "إلينا" من سريرها برائحة فم كريهة وحموضة في المعدة، كان ذلك بسبب تناولها لكمية كبيرة من العسل في الليلة الماضية، حيث سبب لها الحشيش ضربات جوع مؤلمة.

أعدت الحمام، دخلته بلا رغبة، وفكرت بكسل في إزالة شعر قدمها اليسرى، لكنها قد تواعدت مع أخويها "خوان" و"مرثيدس"، أن تقابلهما في بيت الأم، وتوقعت أنها لو انكبت على نظافتها الشخصية وقتًا طويلاً، ستتأخر في الوصول إليهما. ارتدت بنطلون جينز وبلوفر قديم ووضعت فوقه معطف زوجهما المشمَّع، الذي كان يعجبها على وجه الخصوص. لم تمطر السماء، لكنها كانت ملبدة بالغيوم، وواجهات المباني كانت تحمل بقع رطوبة عالية. قادت سيارتها ببطء لتفتدي الحوادث، ودخلت الحي من الجزء الخلفي، لترى مرة أخري إتلاف الأرصفة التي كانت تشكل المنظر العام أثناء شبابها. عندما وصلت لشقة أمها، كان أخواها هناك في انتظارها كانت "مرثيدس" تبكي على أريكة الصالون، وكان "خوان" يربت على رأسها بشكل تلقائي.

- ماذا حدث؟ سألت "إلينا".

- لقد أثر فيها الدخول للشقة - أجابها "خوان".

كان البيت مظلمًا، مثل النهار. كان وضع الأشياء والأثاثات يوحي بوجود الأم، أو بذكراها، كان يوجد فقط كوم من التراب في المناطق المختبئة من الأثاث، وفوق شاشة التلفزيون، وهو ما كان

يوحي بهجران البيت.

- رائحة بيت مغلق – قالت "إلينا"

- رائحة بيت ميت – قالت أختها بتشنج.

- ماتت أمنا في المستشفى.

- لا فرق، رائحة بيت ميت – ألحت أختها.

اقتربت "إلينا" من باب الشرفة، فتحته. لم تلحظ أن الجو داخل الشقة قد تحسن عند فتح الباب، بالإضافة لذلك بدا لها أن الجو الجنائزي في الشوارع منبثق أصلاً من الموت الذي كان يتنفس داخل الشقة.

بدأت السماء تمطر مرة أخرى، لكن حبات المطر – المضمحلة والعكرة – كانت تتساقط فوق الأسقف، كما لو كانت قطع شاش مستعملة قبل ذلك لجسد محتضر.

ذهبت إلينا إلى المطبخ، حيث وجدت طعامًا قد فسد، فأمسكت به بأطراف أصابعها باشمئزاز وألقته في كيس بلاستيك.

عندما انتقلت أمها إلى المستشفى شخص ما فصل مفتاح الكهرباء العمومي، ومع ذلك لم يخطر على بال "إلينا" أن ترى إن كان هناك شيء في الثلاجة أم لا. فتحت أيضًا نافذة المطبخ التي أدخلت تيارًا باردًا جعلها ترتجف. عادت إلى الصالون.

- كانت هناك أطعمة في الثلاجة – قالت.

- لو لم أكن أقيم في "برشلونة"، لجئت في أي يوم لتنظيف البيت – أجابتها أختها بلهجة عتاب.

تبادل كل من "خوان" و"إلينا" نظرات تضامن، لكنهما ظلا صامتين. كان الثلاثة جالسين، يشكلون نصف دائرة، في غرفة

الأنتريه أمام التليفزيون. تأملت إلينا أختها التي كانت تعطيها جانب وجهها الأيمن. كانت تشعر أنها ترى شيئًا قديمًا جدًا. بعد ذلك وجهت نظرها إلى أسطح الأثاث، قاتم اللون، قديم الشكل، ذات الظلام الحزين،الذي يختبئ ورائه شيء مثير للارتياب. أحست بحركة داخل أمعاءها. لكن فكرة أن تستعمل حمام هذا البيت كانت تبدو لها مشمئزة.

ذهبوا إلى البيت ليخلوه، ليقسموا الأشياء الموجودة به، لكنهم ظلوا جالسين، كما لو كانوا في انتظار قرار خارج عن إرادتهم. فجأة، شرع "خوان" في البكاء. اقتربت منه "مرثيدس" لتهبه السلوى أو لتضاعف من حزنه. تأملت "إلينا" هذا المنظر ببرود، واعتبرته شيئًا تقليديًا، لذا لم تنضم إليهما، في نفس هذا الصالون وبأثاث وجو متشابهين، كان الثلاثة أطفالاً ثم مراهقين ثم شبابًا. كانت "إلينا" الأخت الكبرى و"خوان" الأصغر، لكن الآن يبدو أنهما في عمر واحد. النضج يمحي صبغات السن والموت يقضي على النزاعات. فكرت، كنا أيضًا نرضع من هذا الصدر الحنون، المدفون الآن تحت التراب. لم نتجرأ أن نعترف بفضله، أو ربما اعترفنا لو اعتبرنا أن الكراهية جزء من أجزاء الحب، وربما تكون أكثر الأجزاء فاعلية.

خرجت إلى الممر وأطلت في غرفة نوم أمها. أضاءت النور لأن النافذة كانت مغلقة، وتأملت أحجام الأشياء، كما لو كانت في انتظار أن يوحي لها هذا التأمل فكرة ما، أو مفهوم أو حكم يلخص معنى الحياة، أو ربما يحدد اتجاهها أو هدفها، بشرط أن تقودها إلى القبر، لكن تأملها ذهب سدى. فلم يحدث شيء إلا حركة في أمعائها جلبت لها الضيق. اقتربت من الدولاب القديم، ذات الثلاث ضلف، والذي كان يبدو مركز البيت. فتحت الضلفة الوسطى، كان لها

ظلام خاص، مختلف عن ظلمات الحياة، وكان لها رائحة ثابتة لم تتغير على مدار السنين.

كانت مثل البئر الذي عانت مياهه من التعفن أو المرض. فكرت "إلينا" أنها لو ألقت حجرًا داخل هذا الدولاب فلن تسمع صوته عندما يصل إلى العمق. كان يبدو ظلامًا عميقًا، لكن، عندما مدت يدها لتلمس على فستان من فساتين أمها، الذي كان يقطع الظلام، سمعت صوت شيء قد انقلب. دققت النظر في الدولاب فوجدت زجاجة كونياك فارغة لنصفها. فكرت أن تخفيها حتى لا يراها أخواها، لكن سريعًا ما لاحظت وجود زجاجات أخرى كلها من النوع الرخيص، كما أنهما عاجلاً أو آجلاً سيرونها. وبالتالي تركتها "إلينا" في مكانها.

وجدت فوق الكومودينو كتبًا دينية، وسبحة فضية بها صورة حزينة للمسيح. فتحت درجه، واكتشفت وجود مجموعة من الكراسات ذات الحجم الصغيرالمدبسة من أعلى. جلست على حافة السرير وفتحت الكراسة الأولى، ولاحظت خط أمها وبدأت تقرأ الورقة الأولى.

((أكتب هذه الصفحات التي لا أعرف كيف أسميها ولا إلى أين تقودني قبل أن أتم الثالثة والأربعين بقليل. لقد شفيت من الالتهاب الرئوي الذي أصابني ولكن عواقبه، على ما أظن، ما زالت موجودة. لم أقل شيئًا لا للطبيب ولا لزوجي عن هذا الورم الصغير المزعج الموجود بجانب رئتي اليمنى، والذي لم تستطع الأدوية أن تقضي عليه. أخاف أن يكون جرثومة لشيء لم يزل مستترًا ولا يمكن محاربته. كل أملي هو أن ينمو ببطء بحيث يتركني أرى أولادي متزوجين وأستمتع قليلاً بأحفادي، إذا وهبني الله إياهم.

علي أية حال، هناك شبح في هذه الوعكة الصحية، أريد أن أقول

إنني أشعر أن المرض مثل الشبح الذي يجري متجولاً في جسدي وإنه يستمتع بانتقاله من مكان إلى آخر وهذا الانتقال يتوقف على الساعة التي استيقظ فيها. فهذا الصباح، على سبيل المثال، استيقظت عند الفجر على وخزة في رقبتي، في الجزء الأيسر، تناولت بعض الأقراص التي احتفظ بها لالتهابات البلعوم، بعدها هاجمني النعاس. ومع ذلك، عندما استيقظت بعدها جاءتني نفس الوخزة لكن في رئتي اليمنى. يا لها من حياة)).

سمعت "إلينا" صوتًا قادمًا من الصالون، فأغلقت الكراسة. كانت تشعر باختناق وانبهار، كما لو كانت قد شاهدت شيئًا فظيعًا أو أسطوريًا، إنه شيء هام لاتجاه مصيرها الشخصي. بعد أن تحققت انه لا أحد يقترب، أخذت الكراسات وأخفتها تحت البلوفر وألصقتها على جسدها بحزام البنطلون. عادت بعد ذلك إلى الصالة، وتأكدت أن أخويها قد تحركا من مكانهما، فأخذت حقيبة يدها ووضعت فيها الكراسات. خرجت بعدها إلى الشرفة حيث أنها قد بدأت في تصبب العرق بشكل غير طبيعي، وظلت هناك حتى شعرت بالبرد يرجف نصف جسدها الأعلى. دخلت مرة أخرى إلى الشقة وساعدت أختها في طي البطاطين. بعدها دخلت الحمام وأغلقته بالمزلاج. فكرت أنها لو أفرغت أمعاءها ربما تشعر بتحسن، لكنها كانت عاجزة عن الجلوس في دورة المياه. فتحت الصيدلية الصغيرة الموضوعة فوق الحوض ورأتها مليئة بالأدوية، وخاصةً الأقراص. لم يكن بغرفة الحمام نافذة، وبالتالي بدأت تعاني في الحال من الشعور بالاختناق، وهو الشيء الذي جعلها تعود إلى الممر. كان أخوها يفك السرير الذي كان ملكًا لأبويهم.

- هل ستأخذ السرير؟ - سألت هي.

- لن نتصرف بهذه الطريقة. أجابها "خوان" بنبرة مراوغة.

تقابل الثلاثة بعد ذلك في الصالون مرة أخرى، كانوا يتعاملون بفتور، كما لو كانوا سيقومون بمهمة شاقة. تحدثت "مرثيدس":

- أعتقد أننا لو بقينا هكذا لن ننجز شيئًا – قالت – أقترح عليكم أن يأخذ كل منا ما يريده (وإذا أراد اثنان نفس الشيء فليتقارعا) ونتصل بعد ذلك بزبال ليأخذ ما تبقى.

تكلمت "مرثيدس" بلهجة جافة وغير معقولة، لكنها هكذا دائمًا عندما تجري ذكر الأفكار البارعة. ومع ذلك أحست "إلينا" لأول مرة بدفعة تسوقها إلى البكاء، فتحركت عضلات وجهها ثلاث أو أربع مرات بعنف. أشد ما كان يثير في نفسها الألم هو أنها عندما كانت هناك – في هذا المكان الذي يحتوي شبابها – كانت تهتم فقط بمجيء زبال.

- اتفقنا – قالت، تستطيعا أن تقتسما كل شيء بينكما أنا لا أريد شيئًا، وأفضل ألا أطأ هذا البيت مرةً أخرى.

نظرت لها "مرثيدس" بكراهية، لكنها لم تفعل أي إشارة لتوقفها.

اصطحبها أخوها إلى الباب ومسح بيديه فوق وجهها قبل أن تخرج. في الشارع كان على "إلينا" أن تبذل جهدًا كبيرًا لتتذكر أين ركنت السيارة. في النهاية وجدتها وركبتها سريعًا كما لو كانت في حاجة إلى أن تجلس لتخفف من هذا الضيق الذي انتابها. كان شعرها مبللاً بسبب سحب المطر التي تغلف المدينة، وكانت تبدو مخنوقة بعض الشيء بالرغم من أن درجة الحرارة لم تكن مرتفعة. أسندت يدها على عجلة القيادة، وأخذت ثلاثة أنفاس عميقة لتقضي على حالة الضيق. بعد ذلك، بدون أن تدير السيارة، أخرجت واحدة من الكراسات من حقيبتها، وفتحت صفحة بالصدفة، وقرأت: –

((بعض الناس يفتحون عيونهم قبل أن يستيقظوا، كما لو كان

الخوف يصطحبهم عند الاستيقاظ.. أنا لا، أولاً أفكر من أنا، أعرف نفسي كأن أحد يقول لي عن هويتي، بعد ذلك أرفع جفوني لا أعرف بطريقه محددة ماذا ترى عيناي. عندما استيقظت اليوم لم أشعر بأي عرض من أعراض الألم بل على العكس أحسست بقوة جسمانية غير مفهومة تسيطر عليّ. ظلت عيناي مغلقتين وقتًا طويلاً، تلاحظ أحشائي التي بدت أنها خرجت عن صمتها الذي كانت عليه. اعتقدت أنه ربما لا أكون أنا، وخشيت أن أرفع جفناي لئلا أرى دولابًا آخر مختلف أمام السرير، لكنني في النهاية أعلم أن الإنسان هو دائمًا نفسه، وبالتالي استويت في مجلسي وشعرت بألم في جانبي الأيمن، وبقيت طول اليوم بهذا الألم الغريب الذي لا أعرف من أي عضوٍ يأتي. أصيب زوجي بنزلة برد ونقل لنا العدوى جميعًا...)).

أغلقت "إلينا" الكراسة وتأملت الشارع. كان المشاة يسيرون محترسين من المطر رافعين المظلة، بالرغم من أنهم لم يفتحوها. تنهدت سريعًا كما لو كانت تستعيد قوتها البدنية. وجهت يدها اليمنى لمفتاح التشغيل، لكنها سحبتها في الحال. أخذت الكراسة مرةً أخرى وفتحت الصفحة الأخيرة وقرأت:-

((إن الجسم البشري في الواقع مثل الحي في المدينة، له مركزه التجاري وشوارعه العمومية ومحيطه الغريب الذي ينمو أو يموت. أنا لست من هنا، لست من هذه المدينة المسماة مدريد، عاصمة إسبانيا. لقد أسقطتني أقدار الحياة في هذا المكان، ورويدًا رويدًا نسيت من أين كنت. كنت من مكان يطل على البحر. مكان تدفئه الشمس التي لا أريد أن أُجري ذكرها، لأن مع مرور الوقت، لم أعرف متى بالتحديد، لم أعد من هناك. الحكاية هي أنني جئت إلى هذا الحي المحطم الذي يشبه جسدي، المصاب بنفس مرضي، حيث أنني، عندما أتجول فيه، أرى ألمه ينتقل كل يوم من مكانٍ إلى آخر. أظافر قدماي هي محيط هذا

الحي الذي يخصني، ولهذا فهي مكسورة ومشوهة، وكعبي هو أيضًا منطقة ضعيفة في هذا الحي المكون مني، وبداخله تحيا كائنات قد هربت من حربٍ ما، من دمارٍ ما، من جوعٍ ما. وذراعاي هما البيوت الآيلة للسقوط، وعيناي هما الأضواء الشاردة، عيناي من غاز ورقبتي تبدو كالحارة التي تربط منطقتين صحراويتين ببعضهما. شعري هو الجزء الثابت في هذا الجسد، لكن عليّ أن أصبغه لأخفي ما حل به من دمار. وفي النهاية، هناك زبال يسكن جسدي، لا أريد أن أتحدث عنه، لكن وكما يوجد في الأحياء المهدمة، نجد أن القذارة تقترب إلى المركز وتقابل قشر البرتقال في أي مكان لتتغذى عليه. بالنسبة لجسدي، لا يستطيع أن يسير مع القذارة التي تملأه، والمجلس المحلي لا يفعل شيئًا لإصلاحه بعد فساده)).

أغلقت "إلينا" الكراسة بعنف، واحتفظت بها في حقيبة يدها. الكحول والأقراص، قالت. بعد ذلك، كما لو كانت قد اتخذت قرارًا هامًا، أدارت السيارة، وهربت من هذا الحي من أقل جوانبه قذارة.

وصلت إلى بيتها في حالة استثارة غير محببة إليها. استراحت في الصالون دون أن تقلع المعطف. أمسكت الكراسات. كانوا خمس، مع ذلك كانوا مرقمين من واحد إلى ست. وجدت أن الكراسة رقم ثلاثة غير موجودة. أخافها ذلك. وضايقها فكرة أن يجدها أي من أخويها. أخذت رقم أربعة وقرأت الصفحات الأولى.

((مزقت الكراسة الثالثة لأنني كنت أتحدث فيها كثيرًا عن الأولاد. عن أولادنا لا نعرف ماذا نقول لأنهم طيبون وأشرار في الوقت نفسه، وتحققت أن الواحدة منا تحب أولادها فقط عندما تنتابها فكرة أنهم مخلوقون منها، وبالإضافة لذلك فإن الأولاد هم جزء منفصل من أجسادنا، وبالرغم من أننا قد تعودنا عليه، يبدو شيئًا غريبًا جدًا، أحيانًا يبدون كما لو كانوا قادمين من حي آخر،

بالرغم من أنهم قادمون من هذا الحي. لقد تألمت كثيرًا عند ولادتي لأطفالي الثلاثة، واستمرت عواقب الولادة مدة طويلة. لدي كتاب لدكتور يوغسلافي يتحدث فيه عن الأمراض بالترتيب الأبجدي وكيفية علاجها. لهذا أعرف أن رحمي قد تدلى بسبب نوع من ارتخاء الأربطة، وهذا جعله يتساقط فوق المهبل ساحبًا المثانة عند سقوطه. ولهذا السبب عندما أسعل أو أضحك بشدة تهرب مني بعض نقط البول بطريقة لا إرادية. ولهذا أيضًا أشعر مع هذا الإحساس بأن شيئًا بداخلي قد غير مكانه. وطبقًا لكتاب الدكتور اليوغسلافي فإن هذا المرض يسمى تدلي رحمي.

إن أصعب ولادة واجهتها في حياتي هي ولادة "إلينا"، التي تضايقني الآن كثيرًا. يقول زوجي إننا نتجادل كثيرًا لأن لنا نفس الشخصية والطباع. ولكني أرى أن هذه المذكرات، أو أيًا كان اسمها، ليست للحديث عن الأولاد. أنا أحب أولادي وأرعاهم. ولكن كموضوع للحديث فالكلام عن البنكرياس أفضل)).

أغلقت "إلينا" الكراسة، كانت تبدو مندهشة وحائرة، كما لو كانت إلى الآن لم تقرر هل اكتشفت كنزًا أم أنه شيء تافه.

على أية حال، فإن هذه المذكرات تحتوي على شيء عميق مرتبط بوجودها، بوجود "إلينا" شخصيًا، كما لو كان وراء خط أمها أو كلماتها التي تحتفظ بها في أحشائها تحذيرًا مختبئًا. تستطيع "إلينا" وحدها أن تدركه، فربما كان يشير إلى مستقبلها.

أكلت "إلينا" سلطة فواكه، على أمل أن يساعدها هذا النظام على تنظيف أمعاءها، حيث كان يبدو وجود شيء راسخ، ينتقل من مكان إلى آخر تبعًا لهواه، لكن لا يمكن طرده من جسدها. بعدها دخنت سيجارة حشيش ونامت. قبل أن تستغرق في النوم راودها حلم: كانت تتنزه على ضفاف أحد الشواطئ، فجأة توجهت إليها امرأة

دون أن تنتبه لوجودها، وعبرت متسربة من خلال جسدها كما تعبر الملائكة من الحواجز. استمرت المرأة في السير وعبرت صخرة. بعد ذلك اضطجعت على الرمال، كمن يحفر قبرًا للشمس، ورويدًا رويدًا، اختفت، امتصتها أرض الشاطئ كما تمتص مياه البحر. كانت "إلينا" تقترب من مكان الأحداث، لكن في هذه اللحظة عانت أمعاؤها من اضطرابات، وشعرت أنها على وشك الإغماء. حينئذٍ، حركت قدمها اليمنى من فوق السرير ووضعتها على الأرض، هكذا سمعت أن السكارى يفعلون ذلك حتى لا يفقدون وعيهم. لمس قدمها للأرض الباردة خفف عنها ضيقها، وبعد قليل نامت.

في الساعة السادسة والنصف أيقظها جرس الباب. نهضت فاقدة بعض الوعي، ارتدت الروب، عبرت الصالة متخلية عن الملحقات المظلمة التي تركها النوم علي وجهها وعلى بقية جسدها. كان أخوها واقفًا على الباب، غارقًا في عرقه، لكنه كان سعيدًا. قال:-

- انظري ماذا أحضرت لك.

بجانبه كانت توجد أريكة قديمة لكنها صلبة، مغطاة بالجلد. وبيده ساعة حائط مثل تابوت الطفل.

- لقد أرهقني كثيرًا أن أصعد بهما من السيارة إلى هنا لكن لا يمكن أن تبقين بلا شيء. - أضاف.

كانت أريكة أمها، وهى عبارة عن شيء ذات قيمة نادرة ومستعملة. في وقت ما كانت المكان المفضل إلى "إلينا"، حيث كانت تتنازع مع أمها لتجلس عليها وتشاهد التليفزيون أو لتقرأ. أما الساعة، فهي ملك للعائلة منذ زمنٍ بعيد، وقيمتها تكمن في أنها تعمل بالرغم من قدمها.

- قلت لكما إنني لا أريد شيئًا - أجابته "إلينا" بإشارة شكر تكذب

تأكيده.

قام أخوها بتعليق الساعة في المكان المناسب مـن الصـالون، وبعد ذلك نقل أثاثًا آخر ووضع الأريكة تحت الساعة ليكون بينهما علاقة تشابه، مثل تلك العلاقة التي كانت موجودة في بيت الأم.

- وأين زوجك؟ - سألها "خوان" بينما كان يتأمل المنظر بعد هـذا التعديل.

- عنده اتفاقية بيع أو شيء كهذا، ولن يعود قبل الغد.

- هل كل شيء على ما يرام؟ - سأل "خوان".

- سأعد لك فنجان قهوة - أجابته "إلينا".

ظل أخوها بصحبتها بعض الوقت، لكن محاولات كل منهما في مشاركة الآخر باءت بالفشل. كما لو كانا قد انتسبا في وقتٍ ما إلى وطن واحد، لكن الحياة قد فرقت بينهما، وأجبرت كلاً منهما على اكتساب علامات وتقاليد ومواقف غريبة جعلتهما يتغيران إلى أناس آخرين، لكنهما ظلا يتذكران علاقتهما القديمة، لكن هذه الـذكرى ليست لها فائدة أخرى سوى أن تغذي الإدراك بالفقـدان وتأكيـد استحالة أن يعودا مرةً أخرى إلى وطنهمـا الأم، حيـث يمتلكـان الإشارات القادرة على إثارة عالمهم الخاص وإحياء ذكراه، حيـث الأرض المشتركة التي فيها قد يكون التغيير ممكنًا إلى الآن.

(٤)

كانت ليلة الأحد. لم تنم "إلينا" جيدًا. كانت دقات ساعة الحائط تُقصي عنها بانتظام حلمًا شفافًا مثل الزجاج، أملس مثل أسطح الأشياء. كانت الدقات تخترق الوقت، الغرف، الجوارب. كانت تذكرها بليالٍ أخرى قد قضتها في وطنها الأول، ليالي الحمى والألم والاضطراب المتوتر، وليالي السهر والأرق. كانت هذه الدقات هي الضمير الذي يشير إلى استمراريتها على قيد الحياة. كانت في الماضي والحاضر، تعبر باب الصالون، وتجتاز الممر بنفس الإيقاع. تخترق غرفة نوم المرأة المصابة بالأرق، لتذكرها بالمسافة المتبقية للوصول إلى ضوء النهار، وكانت تحدد لها الكيلومترات المتبقية للوصول إلى هذا الضوء، وتحدد لها الكيلومترات المتبقية في الطريق.

في حوالي الساعة الثالثة فجرًا، قررت أن توقف الساعة وبهذه النية تركت غرفة نومها، وصلت إلى الباب الذي يربط الممر بالصالون، لكنها كانت عاجزة عن فتحه، لأن الخوف انتابها. عادت إلى غرفة نومها، جلست على حافة السرير. كانت حافية، قدماها على الأرض، وبدأت تحلل باختصار هذا الخوف. فكرت أنها لو أوقفت الساعة تكون بذلك قد أوقفت شيئًا آخر. ربما يكون هذا الشيء هو حياتها الخاصة، أو وجود عائلتها، تذكرت قصة شاعر بارز قد أوصى عند موته بدفن ساعته معه، وأن تعلق من طرفها بحبلٍ حتى تستمر طوال ساعات اليوم، وأن تكون خاضعة

لمقاييس الزمن عند الأحياء. ربما أمها، التي كانت تعشق هذه الدقات، لأنها كانت تشعرها بالصحبة، هي التي أعدت كل هذا من الجانب الآخر من أجل أن ترث "إلينا" الوقت، أو قياس الوقت، كمن ترث لهيبًا وعليها أن تغذيه للأبد تحت وطأة خطر اللعنة. إحساسها بالمسئولية بدا متجاوزًا للحد، لكن كان لديها منطق أن كل الأشياء تعمل بدقة التسلسل على الأقل ساعات الليل هذه،اطمأنت عندما راودتها فكرة أن في الصباحِ سينقسم هذا المنطق إلى أجزاء، كما يتدمر الخوف الذي ينتابها ليلاً مع دخول ضوء النهار، وحينئذ يمكنها أن توقف الساعة، ويصير هذا الحدث مجرد كابوس قد زال. قررت أن تلف سيجارة حشيش لتصالح النوم، لكنها انتبهت إلى أن ورق الدخان ليس بيدها، لقد نسيته في مكانٍ ما بالصالون.

نهضت مرةً أخرى، ومرة أخرى منعها الخوف من أن تفتح هذا الباب. شعرت بالبرد يسري في قدميها فعادت لتبحث عن نعل. أشعلت بعد ذلك أكبر عدد ممكن من الإضاءة التي كانت في متناول يدها، وأدارت سقاطة الباب كمن تنتظر مقاومة قادمة من الجانب الآخر. لقد دارت السقاطة بلا أي صعوبة، فدفعت حينئذٍ الباب وظهر أمام عينيها أبعاد الصالون المظلم. ولكي تضيء هذا المكان، كان عليها أن تتخطاه وتضغط على المفاتيح الكهربائية. ملأها الارتياب وأحست أن الخوف جاء يدمر مرةً أخرى هذه المنطقة في جسدها والتي تستحوز على أمعائها. أدركت حينئذٍ أن أكثر ما يخيفها هو أن ترى أمها جالسة على الأريكة تحت تك تاك ساعة الحائط. تلك الساعة التي أعادت، منذ عملت يوم الأحد، النظام القديم والانسجام القديم والألفة العائلية. كل هذا تثيره الأريكة مع الساعة. كل هذا كانت الأم تلعب فيه دور همزة الوصل والاتحاد. صرخت:- الفاعل والفعل والمفعول. اجتازت الصالون

في حركة هلع. أشعلت الإضاءة وتأملت الأريكة الخالية، المسكونة في الوقت نفسه بشكلٍ غريب، وفوقها كانت الساعة تقيس الزمن، هذا الزمن الذي يخص "إلينا"، ولا يخصها في الوقت نفسه.

لقد جعلها الحشيش تشعر بعزلة أكبر. دخنته بأكمله وهيٍ جالسة فوق الأريكة الجلدية. متخيلة أنها بهذه الطريقة تغتصب مكانًا كانت غير مستعدة حتى أن تطأه. عادت إلى غرفتها دون أن تطفئ النور وعندما عرفت أنها غير قادرة على استجداء النوم أخذت مذكرات أمها من منضدة الأباجورة وحاولت أن تخمن التواريخ التي تتوافق مع الأحداث.

لكنها لم تجد في أي كراسة ولا في أي صفحة تواريخ زمنية باستثناء هذه الصفحة التي أشارت إليها في البداية ((ابدأ هذه الصفحات التي لا أعرف كيف اسميها ولا إلى أين تقودني قبل أن أتم الثالثة والأربعين بقليل)).

قامت "إلينا" ببعض الحسابات لتستقر في النهاية على قراءة المذكرات، لكن سريعًا ما تركت هذه الفكرة عندما تنبهت إلى وجود بعض الذكريات الأليمة. فكرت أيضًا أن تقرأ الصفحات الأخيرة من الكراسة الأخيرة، لكنها قررت أن تقوم بهذه العملية في ضوء النهار. في النهاية فتحت واحدة بالصدفة من الكراسات وقرأت ما كان يبدو إنه حدثًا.

((أتذكر أنني منذ صغري وأنا أشك في قدرة الكائنات البشرية على معرفة الحقيقة، وكان هذا ناجمًا عن أني كنت أتبول على نفسي حتى كبرت (ربما حتى بلغت خمس سنوات أو أكثر) حينئذٍ قالت لي أمي الطيبة والساذجة بعض الشيء إن فضلات الإنسان يجب أن تخرج في الحمام لتتنزه ولتستنشق بعض الهواء، وتعود بعد ذلك إلى جسدي، والبرهان على هذا الحدث هو أنني بعد ساعات قليلة كنت أعود لأشعر

بالرغبة في التبول. ربما طبيبٍ ما هو الذي نصح أمي بأن تقول لي ذلك، لكن هذه القصة كانت تبدو لي حماقة، لأنني كنت أعرف بالخبرة أن الأشياء التي تذهب في الحمام لا تعود أبدًا، ولكي أبرهن لنفسي علي ذلك ألقيت خاتمًا من الذهب، كانت أمي تقدره جدًا، في الحمام. بعد أيام قليلة بدأت أمي تبحث عنه بجنون، فقلت لها ألا تشغل نفسها، فأنا قد ألقيته في الحمام، وبالتالي فلن يتأخر في العودة. ضربتني يومها ضربًا مبرحًا. ومع ذلك، وبالرغم من عدم تصديقي لهذه القصة، إلا أن التبول عدة مرات في اليوم جعلني أشك أحيانًا في صدق أمي. فربما يذهب البول مع ماء الحمام ويعود بعد ذلك من طرق خفية إلى جسمي. أنا الآن أرمل وعجوز وأولادي متزوجين، إلا أنني عندما أذهب لأتبول أتخيل أن هذا السائل الذي أطرده من جسدي هو نفسه نفس السائل الذي طردته بعد ولادتي. سائل تحرك على طول هذه السنين داخل محيط غامض مرتبط بمثانتي، مثل الفكرة المتسلطة المرتبطة بالعقل. وذلك لأن الأفكار المتسلطة يبدو أنها تذهب، لكنها تعود دائمًا إلى الرأس بعد أن تجتاز ماسورة النسيان، هكذا نسميها. على أية حال، مازالت هذه القصة تسليني إلى الآن، وأفكر فيها في كل مرة أدخل فيها إلى الحمام. لكن هناك شيء آخر سبب لي أذى أكبر، هو الإحساس بعدم الثقة في البشر، فهذا الإرتياب لم أستطع أن أعالجه إلى الآن. لهذا، وبالرغم من نزعتي الدينية، إلا أنني لا أستطيع أن أؤمن بالثالوث. أعتقد أن هذا هو أيضًا ما يحدث للبروتستانتيين.

هناك قصة أخرى قد حكوها لي عندما كنت صغيرة أعجبتني جدًا وما زلت أصدقها، بالرغم من أني لم أحكها لأحد. وتقول إنه طبقًا لرأي أمي، كل منا له قرين، يشبهنا، ويشغل دائمًا الطرف النقيض منا في الكرة الأرضية. (إذا لم يكن كذلك فهو ليس قرين). قصت لي أمي أن هذا الكائن يسير عندما نسير، ينام عندما ننام، يتألم عندما نتألم، في

نفس الوقت بالضبط. ذلك لأنه يشبهنا ويفكر فيما نفكر فيه، وفي نفس الوقت. وكما يبدو فإن بعض المغامرين في الأزمنة البعيدة قد سافروا بحثًا عن قرينهم. لكنهم لم يصلوا لرؤيته أبدًا. ذلك لأن القرين قد انتقل في الوقت نفسه من مكانه ليكون أيضًا على الطرف النقيض من الكرة الأرضية،لأن الفكرة قد خطرت بباله في نفس الوقت وشرع هو أيضًا في السفر بحثًا عن قرينه.

هذه القصة جعلتني أشعر في طفولتي أن هناك من يصاحبني، وعندما كان الخوف ينتابني ليلاً، كنت أفكر في قرينتي التي كان يحدث لها نفس ما يحدث لي، وكان انطباعي أن هناك في الجانب الآخر من الأرض من تشاركني روحيًا، أحيانًا كنت أوخز إصبعي بإبرة بكل قسوة لكي أضايقها، هي أيضًا كانت تفعل أشياءً تضايقني، فذات يوم مزقت فستاني الجديد بسلك لأني لم أهتم بها، وبذلك عاقبتني بحرماني من الخروج لمدة خمسة أيام. كنت أسمي قرينتي في البداية "فلوريتا"، لكن بدا لي بعد ذلك أنه اسم ثقيل، لذا أسميتها "إلينا" (أنا لا أعرف ماذا أسمتني هي). ولهذا أسميت ابنتي الكبرى بهذا الاسم، بالرغم من عدم وجود أحد في العائلة بهذا الاسم. أتذكر أن زوجي وأمي وكل الناس سألوني عن السبب في تسميتها "إلينا"، لكني لم أعترف لأحد أنه كان اسم قرينتي.

في بعض الليالي، عندما كنت أدرك أنني أشرب كونياك بإفراط، كنت أفكر أنه ربما يكون شيئًا متعلقًا بقرينتي "إلينا"، التي أدمنت الكحوليات لأنها لا تعرف كيف تواجه لحظات الحياة الصعبة، مثل لحظات العزلة التي تعايشت معنا في شيخوختنا. كانت تحزنني لأنها تدمر نفسها، بالرغم من أنها ربما تنتحر في لحظةٍ من لحظات عزلتها وتجعلني أرتاح)).

قرأت "إلينا" السطور الأخيرة بانبهار، أغلقت الكراسة ووضعتها

في درج الكومودينو. نهضت بعد ذلك ودخلت للحمام، حاولت أن تتقيأ بلا جدوى. كانت تفكر أنها لو استطاعت أن تتقيأ ستقضي على هذا الدوار. كانت شاحبة. اجتازت الممر من جانب إلى آخر، أحيانًا، عندما تسير، تبتعد عنها تأثيرات الحشيش. قررت ألا تدخن مرةً أخرى، لأن الحشيش في الفترة الأخيرة بدأ يؤثر عليها تأثيرًا غريبًا، متشائمًا، تأثيرًا على مظاهر الحياة، حياتها هي، وحياة من لا تعرف عنهم شيئًا حتى الآن، هؤلاء الذين بدءوا يظهرون في الأيام الأخيرة لمرض أمها، خاصةً ابتداءً من وفاتها. شعرت مرة أخرى أنها غارقة، وهذا هو بداية الإغماء الكلي، بداية السقوط، هرولت إلى نافذة غرفة النوم، فتحتها، أطلت برأسها منها. وهبها الهواء البارد والمطر كل القوة. توقف العرق، ونامت على سريرها بشعر مبلول. رأت في المنام أنها كانت صغيرة، تلعب على الشاطئ، بالقرب من أمها. وجدت عملة في إحدى الحفر، كانت تمثل لها كنزًا، أخذتها بانبهار. ومع أنها أدركت أنها داخل حلم، إلا أنها كانت تضغط عليها بيدها اليمنى بكل قوة، متحققة من أن صلابة العملة كانت زائدة عن الحد، وبالتالي لو احتفظت بقبضة يدها مغلقة حتى تستيقظ فستجدها. دق جرس التليفون فأيقظها، كان نهار يوم الاثنين. كانت أظافرها ملتحمة بقبضة يدها، لكن لا يوجد شيء بالداخل رفعت السماعة، كان زوجها على الجانب الآخر.

- أنا في المكتب - قال.

- متى وصلت؟ - سألت وهي فاقدة بعض الوعي.

- في الساعات الأولى من الصباح. ولم آتِ إلى البيت لأن لدينا بعض المشاكل هنا.

نظرت "إلينا" في الساعة، الثالثة بعد الظهر. أخيرًا نامت وقتًا طويلا. عندما ودعت زوجها، تذكرت الحلم. تذكرت أنه كان يشير

إلى حدث في طفولتها، فبالفعل، منذ سنوات بعيدة، كانت في إجازة مع أبويها، وكانت قد حلمت بنفس الشيء. وفي اليوم التالي حفرت بعض الحفر في الشاطئ، ووجدت عملة في إحداها. هذا الحدث الذي يشكل تحقيقًا لحلمها، كان قد حدد حياتها، حيث أنها – على عكس أخويها – كانت تعتقد دائمًا أن تحقيق أمنية، أيًا كانت الأمنية، شيئًا ممكن التحقيق. كان النهار طويلاً، وفي هذا الوقت كانت الشمس تدخل من شرفة الصالون لترد الأثاثات والأشياء إلى شكلها الطبيعي.

لاحظت "إلينا" الأريكة وساعة الحائط تحت هذا الضوء، وابتسمت، لكن بدون تجاوز للحدود المعقولة، عندما تذكرت أحداث الليلة الماضية. لم توقف حركة الساعة المتسلطة لنفس السبب الخفي الذي منعها من إزالة شعر قدمها اليسرى بعد أن أخذت حمامها. في الحقيقة كانت قدمها اليمنى أيضًا تحتاج إلى تنظيف، لكنها قررت أن تفعل ذلك في وقتٍ لاحق.

كانت تشعر أنها قد تحسنت من إرهاقها المعتاد، فعدلت الوعد الذي أخذته على نفسها عند الفجر فيما يتعلق بالحشيش. قررت أن تقلل من التدخين، وأن تمتنع عن تدخينه خارج البيت. كانت تدرك في الفترة الأخيرة أن الحشيش يضعها على حافة شيء لا ترغبه، لكنها فكرت أنه عبارة عن شيء عابر، ربما يكون متعلقًا بموت أمها الحديث، الذي سيختفي مع الزمن كما اختفت الوساوس السابقة. في هذه اللحظة تذكرت عبارة قد وردت في مذكرات أمها، تؤكد فيها أن الهواجس دائمًا تعود، شعرت حينئذٍ بضيقٍ وقتي، لكنها دافعت عن نفسها بحزمٍ وفعَّالية.

ذهبت بعد ذلك إلى مكتب البريد، وتحققت بسرور مصبوغ بالخبث أن هناك ظرفًا مرسلاً لها، كانت قد تعاقدت عليه يوم

الجمعة السابق. أخذته تجولت عشوائيًا بالشوارع تحملــه بيــدها، كانت تبحث عن الرصيف المشمس. ظلت هكــذا حتــى وصــلت لشارع "كلارا دل ريي"، ودخلت كافيتريا كانت قد اعتادتها، طلبت فنجان شايٍ، فتحت الظرف: كان التقرير مكتوبًا على الآلة الكاتبة، وكان مرفقًا بصورة بها زوجها وهو يتنزه على شاطئ وبيده امرأة شابة. وبالرغم من أن الصورة قد التقطت من مسافة بعيدة، إلا أن "إلينا" قد تعرفت على المرأة، إنها سكرتيرة "إنريكــي". ابتســمت بكبرياء، مندهشة من أن هذه الصورة أعطتها إحساسًا بالراحة أكثر مما أغضبتها. دائمًا ما تقويها هذه القصص البذيئة التي تضع فــي العالم نظامًا يجعل "إلينا" تشعر أنها غريبة عنه، لكنها في الوقــت نفسه مرتبطة به. وبعد أن تأملت الصورة عدة لحظــات، قــررت قراءة التقرير:-

((بدأ فريق العمل بوكالتنا بمراقبة الهدف ابتداءً من ظهر يــوم الجمعة الموافق يوم ٢٦ من الشهر الجاري، بالرغم من أن الأموال الموجهة إلينا لم تصل حتى صباح يوم السبت الموافق يوم ٢٧. لقد وضع مدير الوكالة في اعتباره أن البنوك لا تفتح بعد الظهر، وهو الحد الذي منع بلا شك إتمام العملية فورًا وعقب التعاقد مع وكالتنا عن طريق التليفون.

في الساعة السادسة من اليوم المشار إليه خرج الهدف من مكتب مؤسسة استشارية تقع في التقاطع بين شارعي "إيسلاس فيليبينــاس" و"خوليو كارسرس"، وهو المكان الذي يعمل فيــه تقريبًــا. ركــب سيارته وتوجه إلى مطار "باراخس". وبعد أن ترك سيارته في ساحة انتظار السيارات التابعة للمطار توجه إلى مكتب دفع الفاتورة التابع لمكتب السفر المحلي، وهناك قابل امرأة فــي الســابعة أو الثامنــة والعشرين من عمرها، سمراء رقيقة، ذات شعر طويل، وكان يبــدو

أنهما اتفقا على اللقاء مسبقًا. تصافحا بالقبلات التي تدل على وجود علاقة حميمة أكثر منها تعود، بالرغم من أنها علاقة مشتتة.

ركبا طائرة الساعة الثامنة والنصف المتوجهة من "مدريد" إلى "إليكانتي". كانت الطائرة في البداية كاملة العدد، فانتظر الهدف مدة طويلة حتى ركب في اللحظات الأخيرة.

خلال هذه الرحلة القصيرة بالطائرة المتوجهة إلى المكان المشار إليه، وبعد أن تأكد الهدف ورفيقته أن لا أحد في المقاعد القريبة يعرفهما، اتخذا وضعًا رومانسيًا لم ينته حتى هبطت الطائرة. وبعد أن أصبحا في "إليكانتي"، أجرا سيارة توجها بها إلى فندق يطل على الشاطئ على بُعد عشرين كيلو مترًا من شمال المدينة. وهناك باتا ليلة الجمعة والسبت والأحد في غرفة رقم ٣٣٤. وفي هذه الغرفة قضيا معظم وقتهما، حيث كانا يخرجان فقط في ساعة العصر، يتنزها قليلاً على الشاطئ، ويعودان بعد ذلك ويحبسا أنفسهما داخل الغرفة، حيث اعتادا على تناول الغداء والعشاء وأيضًا الإفطار. خلال هذه النزهة، اعتاد الهدف تدخين سيجارة، نظنها سيجارة حشيش، كان يدخنها بمفرده، لأننا لاحظنا أن رفيقته، بالرغم من إلحاح الهدف لم ترغب في إدمان المخدرات التي كان يقدمها لها في أي لحظة.

في صباح يوم الأحد، ولسببٍ ما، قضى الهدف الوقت بمفرده في صالة الاستقبال بالفندق. قضى ساعة كاملة تقريبًا. كرَّس هذا الوقت لقراءة كتاب، احتفظ به في جيب المعطف عندما نزلت هي من الغرفة. كان يبدو أنهما على استعداد للذهاب إلى مكانٍ آخر، لكنهما اختلفا في الشارع، وعادا إلى الفندق، وحبسا أنفسهما داخل الغرفة حتى بعد الظهر. لم يكن متاحًا لنا أن نقف على أسباب الخلاف، ذلك لأن الاستعجال في تكلفتنا بهذه المهمة منع المتحري من التزود

بميكروفونات مصغرة ووسائل أخرى، كانت ستعطي لهذه التقارير صبغة أقوى، بالرغم من أنها مكلفة في مهمة من هذا النوع.

على أية حال فبناء على خبرة المتحري، نؤكد بلا شك أنها كانت عبارة عن مناقشة عاطفية، وفي حالة مواضع الخيانة الزوجية تتميز بالضغوط المزدوجة، ضغوط اجتماعية وتأنيب الضمير الذي يعاني منه كل زانٍ، حتى لو كانت هذه الجريمة تتم في أماكن بعيدة عن مكان الإقامة المعتاد، كما هو الحال في حالة الهدف.

عادا إلى "مدريد" يوم الاثنين في رحلة طيران الساعة السابعة وخمسين دقيقة صباحًا. افترقا عند الوصول إلى مطار "باراخس"، حيث انتهت مهمتنا. والهدف هو رجل في الخامسة والأربعين من عمره أنيق، وقد دفع حساب الفندق بكارت الائتمان، وهو حدث غير معتاد في حالة مرافقة امرأة غريبة، إلا إذا كانت زوجته لا تطَّلِع على حسابه البنكي. قد تكون هذه المرأة زوجة له، فكل منهما بيده دبلة زواج.

مرفق بالتقرير صورة فورية أثناء إحدى نزهاتهما على الشاطئ. اسم الفندق هو "تروبيكال")).

أدخلت "إلينا" الصورة والتقرير في حقيبة يدها، دفعت الحساب وخرجت. وبالرغم من أن الشمس بدأت تميل إلا أن النهار كان واضحًا. عبرت شارع "إسباصا"، متجهة إلى شارع "كوراثون دي ماريا"، وصلت حتى مدخل العمارة التي تقطن بها ابنتها، فكرت لحظة ثم واصلت سيرها. كل من الربيع والتقرير أحدث في جسدها تفاؤلا متحررًا. سارت حتى شارع "لوبث دي أويوس" وأخذت تاكسي لتعود إلى بيتها.

كان زوجها قد وصل، تبادلا عبارات ودودة ودخنا سويًا سيجارة حشيش.

- كيف كان الحال يوم الأحد – سأل "إنريكي".

- بخير – أجابته "إلينا"، التي كانت قد جلست على أريكة أمها، – الساعة والأريكة قد اعتنيا بي.

- إذن لم يحدث سوء – ابتسم زوجها – وبالإضافة لذلك فإن مكانهما مناسب في هذا الجانب، دائمًا تعجبني دقات هذه الساعة.

- الدقات والتك تاك – أضافت "إلينا".

- والتك تاك أيضًا يعجبني – قال "إنريكي"

انتظرت "إلينا" حتى يتمكن تأثير الحشيش من مؤخرة رأسها أو ربما من جبهتها، وسألت:-

- هل تعتقد أننا أوباش؟

حاول "إنريكي" أن يسيطر على نفسه، لكن "إلينا" أحاطته بنظرات عينيها اللامعتين، وبالهبوط الذي تعرضت له جفونها من جراء الحشيش الذي بدأ في تخريب عقلها، وفي النهاية أجاب:-

- أنت لم تكوني من الأوباش طيلة حياتك.

- أنا أسأل عنا، لا عني وحدي.

- لم نكن من الأوباش بفضلك.

- إذن أنت منهم.

- أريد أن أكون منهم منذ زمنٍ بعيد – أجابها "إنريكي" بنبرة تحتوي على مرارة واستياء.

- لماذا؟ ألحت "إلينا".

- لأني أبحث عن السعادة.

نهضت "إلينا" واتجهت إلى أثاث البار. أبعدت زجاجة الكونياك، أخذت زجاجة ويسكي. قدمت كأسًا "لإنريكي" كانت على وشك أن

تعترف له باكتشافها لمذكرات أمها، لكنها فكـــرت أن زوجهـــا لا يستحق هذا الاعتراف. عادت لتجلس على الأريكة،أخذت بعـــض الرشفات، تحدثت موجهة نظرها للسقف.

- لقد اكتشفت هذه الليلة لماذا أنا لا أنتسب إلى الأوباش،أ تعـــرف عندما كنت صغيرة رأيت في المنام أنني أحفـــر فـــي شـــاطئ ووجدت عملة. فكرت أنني لو استطعت أن احتفظ بقبضة يدي مغلقة على العملة حتى استيقظ سأجدها في يـــدي. اســـتيقظت، كانت قد اختفت، وفي نفس هذا الصباح حفرت فـــي الشـــاطئ حفرة ووجدتها مرة أخرى لهذا لم أخضع مثل أخوتي لمصاعب الحياة، لأنني ما زلت أعتقد أن كل الأحلام ممكنة التحقيق.

- هذه صدفة – أجابها "إنريكي" في الوقت الذي نهض فيه وأشعل التليفزيون– سأرى الأخبار.

ظلت "إلينا" على الأريكة بقدم فوق أخرى، تستنفذ الويسكي حتى شعرت بالجوعِ. حينئذٍ استوت في مجلسها وذهبت للمطبخ، لتعـــد لنفسها سندوتشا.

(٥)

خلال أيام الربيع التالية، بلغت "إلينا" درجة عالية من التعمق في الإدراك، أثر على نشاطها. كان من المعتاد أن تسود الغيوم وقت الظهيرة وأن تمطر السماء بغزارة لكن بلا استمرار، وأثناء الصباح كانت الشمس تملأ جميع الأركان. كانت "إلينا" تشعر أنها في أحسن حالاتها، بالرغم من أنها كانت تعلم أنه توازن غير مستقر. ضعُفت الأعراض التي كانت تظهر عليها، بدون أن تختفي، وضغط هذه القوى غير المعروفة على أمعائها كان يتحرك تحت تأثير الحشيش. كان هناك، بشكلٍ عام، تشويش وهمي يتجول في جسدها، كما لو كان مرض يبحث عن مكان ليجلس فيه ويستقر. ذهبت إلى الطبيب عدة مرات، ولكنها كانت تذهب بلا يقين، ولم تقم بالتحاليل التي أوصوها بعملها.

أحيانًا كانت تتذكر ما حدث لها في دار الحضانة، وتعتقد أنها في هذه اللحظات قد وصلت إلى شيء بلا رجعة، لكن معرفتها بمقدرتها علي التوقف عند الحد المناسب كان يهبها الثقة التي كانت تبدو لها أحيانًا ذات مبرر وأحيانًا أخرى لا مبرر لها. قررت أن تستغني عن الخادمة، لأنها تقضي وقتًا طويلاً بالبيت، كما أنها تشعر أنها شاهد غير مريح وأن وجودها في البيت يضايقها، ويخيل إليها أن الخادمة عندما تتحرك في البيت تشبه المرض عندما يتحرك في الجسد. هي لم تسبب "لإلينا" أي أذى، لكنها تشعرها أنها تتوغل في كل عضو من أعضائها، في كل غرفة من

الغرف التي تدخلها، كما لو كانت آلامًا تختبئ لفترة محدودة تحت تأثير الدواء، لكن وجودها – بالرغم من كونه مختبئ – له مقدرة على الانتشار. لقد ساءت أحوال البيت بعد طرد الخادمة بشكلٍ ملحوظ، لكن "إنريكي" لم يقل شيئًا، بالرغم من أنه بدأ ينظر بتوجس إلى القمصان التي تكويها له زوجته بعجلة.

بعد أيام قليلة من التقرير الأول، اتصلت "إلينا" اتصالاً هاتفيًا بالوكالة السرية. نفس الشخص رفع السماعة، وعقدت معه حوارًا محفزًا:–

– لقد بدا لنا تقريركم جيدًا، بالرغم من أنه وصفي بشكلٍ مفرط – قالت "إلينا".

– ماذا تريدين أن تقولي؟ – سأل الصوت.

– كان يتكلم كثيرًا عن تحركات الهدف، لكنه لم يتدخل لتقييم تصرفاته. فمثلاً، عندما يقول التقرير إن الهدف كان يقرأ كتابًا، كنا نريد أن نعرف أي كتاب يقرأ. نحن نهتم بالأشياء المتعلقة بالشخصية، وليس فقط بالتحركات. لقد أصاب التقرير عندما تجرأ وقال إن الخلاف بين الزناة كان خلافًا عاطفيًا، أتفهمني؟

– في الأساس، إن عملنا لا يتضمن إصدار أحكام، ومع ذلك فلو واصلنا في مهمتنا سأتحدث مع المتحري السري يكون أكثر وضوحًا – أجابها الصوت بعدم ثقة.

– لا نريده أكثر وضوحًا، كل ما نريده هو أن يكون أكثر جراءة، حتى ولو تضمن تناقضًا مع ما يحكيه. إن المخبر السري ليس فقط صوت، بل هو جسد وتعايش ومشاعر متعلقة بكل ما يراه، أتفهمني؟

– نستطيع أن نحقق ذلك – أضاف الصوت بنبرة ثقة لها رنين الغرور.

لقد كلفته "إلينا" بتقرير كلي عن "إنريكي"، وأخذته بعد أيام من صندوق البريد، وقرأته على سريرها بمتعة في وقت القيلولة وكان

يقول ما يلي:-

"الهدف الذي نتحرى عنه هو رجل في السادسة والأربعين من عمره في نفس عمر المتحري، ومع ذلك فهو يبدو في الواحدة والأربعين، على عكس المتحري الذي يبدو في التاسعة والأربعين. اسمه "إنريكي أكوستا كامبوس"، عضو مجلس إدارة مؤسسة استشارية غيَّرت اسمها ثلاث مرات في الخمس سنوات الأخيرة بدون أن تغير مقرها. كل شيء يشير إلى أنها مؤسسة وهمية، مرتبطة بدوائر محددة في السلطة السياسية، تختفي بعد تنفيذ عمليات اقتصادية لها ثقل كبير، ثم تظهر مرة أخرى بعد ذلك بقليل بشكلٍ جديد. في العام الأخير نفذت عمليتين مهمتين، واحدة مع وزارة الصناعة والثانية مع وزارة الصحة والبيئة. وفي كل من الحالتين، كانت عبارة عن دراسة للسوق، أو أي شيء شبيه بذلك، ولكن المتحري في هذه المهمة لم يستطع أن يتعمق أكثر من ذلك. فإذا احتاج عميلنا معلومات أكثر عن هذه المؤسسة التي تسمى الآن (أسواق جديدة. إس. إيه) فعليه بالتعاقد مع وكالة متخصصة في هذا المجال، ذلك لأننا نقول إن هذه المؤسسة لها أفرع كثيرة ومتعددة – بعضها شركات دعاية متعددة الجنسيات – ومن الصعب أن نتعامل معها ومن خلال هذه المؤسسة تتداول النقود بشكل سري حتى تختفي، ونحن لا نعلم أين؟ ولا بأي كمية؟، و"إنريكي أكوستا" يحيا حياة رغدة، بلا تباهٍ ويقضي معظم وقته العملي في الشارع، حيث يقوم بالتعامل مع الوزارات المختلفة. قد يكون له مصالح اقتصادية في فنزويلا والمكسيك، حيث كان يسافر باستمرار في الشهور الأخيرة، وغالبًا ما يكون لديه غداء عمل، ودائمًا ما يحدث ذلك في مطاعم راقية اعتادها أصحاب المؤسسات والسياسيون. و"إنريكي أكوستا" رجل متزوج من "إلينا رينكون"، امرأة في الثالثة

والأربعين من عمرها، وتبدو في مثل سنها، وهي امـــرأة نحيفـــة، وعادةً ما نلاحظها غائرة العينين، وهي قليلة العلاقـــات. تقضـــي معظم وقتها بالبيت، بالرغم من أنها كانت تعمل في وقــتٍ ســـابق بشركة دعاية صغيرة، بقسمها الإبداعي. لكن هذه الشركة اختفت، وربما كانت فرعًا من فروع المؤسسة التي يديرها زوجها. علـــى أية حال فإن "إلينا" قد تركت عملها قبل إغلاق هذه الشـــركة بســـبب الإفلاس، أو ربما بسبب الموظفين، لم يبدو لنا أن الأمر هامًا لدرجـــة التحري فيه الآن، ولأننا لا نعلم الغاية من هذا التحري، قـــد نرتكـــب خطأ في تقييم ما هو هام وما هو غير ذلك. وكل من الـــزوجين لـــه حساب بنكي منفرد، بالرغم من أن "إلينا" ليس لها دخل ثابت، إلا من مشتقات تجارة البضائع التي تباع في طرود للمؤسسات المختلفة، وفي أغلب الظن "إنريكي" نفسه هو الذي يتنازل عنها. وحديثًا دخـــل إلـــى "إلينا" دخل لا نعرف كميته، جاء من بيع شقة أمها المتوفاة حديثًا.

والعلاقة الزوجية التي تربطهما تبدو، فـــي الظـــاهر حـــرة أو مستقلة وبالفعل فإن "إنريكي" له حياة عاطفية غير مستقيمة، بالرغم من أنه في الآونة الأخيرة قد حقق درجـــة مـــن الاســـتقرار مـــع سكرتيرته. وهو مدمن للحشيش، وربما للكوكايين أيضًا، لكنه يقاوم هذه الآفة بالحضور الاعتيادي لصالة الجيمانيزيوم القريبـــة مـــن مكتبه، حيث يمارس التمارين الرياضية.

وثمرة زواجهما ابنة في الثانية والعشرين من عمرهـــا، تســـمى "مرثيدس"، ومتزوجة منذ عامين، وتقيم في "مدريد". وعلاقتها بأمها ليست على ما يرام، لكنها مرتبطة جدًا بأبيها وتذهب إليه باستمرار، ودائمًا يعطيها مالاً بشكل شبه اعتيادي، وبعيـــدًا عـــن المســـاعدات المالية، فإن علاقتهما تبدو حميدة. وبهذه المناسبة فإن الكتاب الـــذي كان يقرأه "إنريكي" عندما كان في "إليكانتي" عنوانه (التحول)".

احتفظت "إلينا" بالتقرير في درج الكومودينو، بجانب مذكرات الأم، حاولت بعد ذلك أن تنام بلا جدوى. لقد استطاع الأفق الجديد الذي فتحته هذه التقارير أن يستثيرها، ويملأ فراغًا كان يسكنها. تقلبت عدة مرات على السرير، وفي النهاية استوت في مجلسها، وأخذت الكراسة الأخيرة من مذكرات الأم – كانت رقم ستة – فكرت أن تقرر النهاية، لكنها قررت ألا تفعل ذلك، كما لو كان وقت النهاية لم يحن، كما لو كانت قد وجدت نفسها منغمسة في سلسلة من الأحداث ذات الدلالة والتي يجب فيها أن تحتفظ بهدوئها وأن تعتني بوضع كل شيء في لحظته حتى لا ينتج اختلال في الترتيب التسلسلي.

وضعت الكراسة في الدرج وأشعلت سيجارة، تذوقتها ببطء. ولاحظت لعبة الأضواء التي تلعبها النافذة في السقف. كانت تفكر بلا شك، ولكن رأسها بالإضافة إلى إنتاج الأفكار، كانت تجهز الطريق الذي ستسير فيه هذه الأفكار في المستقبل القريب.

في الساعة السادسة بعد الظهر خطرت على رأسها فكرة أن تتصل هاتفيًا بالوكالة السرية، ولكن قبل أن تفعل ذلك، دخنت سيجارة حشيش، لأنها أحبت أن تظهر على طول الحوار بصورة المرأة التي تتجدث ولا يكبحها شيء. ولسببٍ ما تأخرت تأثيرات الحشيش في الظهور. وبالتالي تناولت كأس ويسكي لتعيد الحركة لدورتها الدموية.

بعد أن أخذت الرشفة الأولى شعرت بكمال جسدي مليء بالشعور بالقدرة الكلية، جلست بالقرب من تليفون الصالون، وعلى يمينها الكأس وطفاية السجائر، وأمامها ساعة أمها وأريكتها، وما زالت تركز فيهما. خلاء الأريكة الواضح جعلها تشعر بالفقدان المثير للصدمة، بالرغم من أنه فقدان وقتي. كانت الأريكة تحتاج

بالفعل إلى رباط يربطها بالساعة، فقد ساءت علاقتهما بعد غياب الأم، فالثلاثة كانوا يشكلون وحدة لا يمكن فصلها، وحدة غامضة من نفس نوع الوحدة التي تشكل الثالوث المقدس. هذا اللغز الذي لم تؤمن به أمها.

رفع مدير الوكالة السماعة كالعادة، فذكرته "إلينا" بنفسها، وسلمت عليه، ودخلت في صميم الموضوع مباشرة:-

- التقرير الأخير - قالت - كان مليئًا بالإطناب الذي لا نحتاجه، ولكنه قام بتصحيح بعض الأشياء.

كان المدير على الجانب الآخر يتنهد بضيق، وأدركت "إلينا" أنه كان منهكًا.

- من الصعب - أجابها الصوت أخيرًا - إصدار تقرير نجهل أهدافه. فلا يتساوى، على سبيل المثال - عمل تقرير اقتصادي مالي لشخص أو لمؤسسة، بتقرير زنا يُعد إجراءًا قانونيًا لإتمام الطلاق. نحن المخبرون نحتاج لمعرفة الأسباب باختصار لتكون تقاريرنا موجزة وفعَّالة تدخل في صميم الموضوع بإيجاز. لهذا فقد يساعدنا كثيرًا إجراء لقاء شخصي مع العميل.

- قلت لك إن هذا مستحيل - أجابته "إلينا" بنبرة حازمة، لكنها جذابة.- ومع ذلك سأوضح لك بعض الأشياء التي قد تساعدكم في حالة رغبتكم في إتمام هذه المهمة.

تسرع الصوت أكد لها رغبته في إتمام المهمة. فابتسمت "إلينا" ونظرت اتجاه أريكة أمها، وفي أغلب الظن أنها فكرت أنها قد اتصلت بوكالة بها مخبر واحد فقط، وهو أيضًا المدير، وأنه الآن على الجانب الآخر من التليفون مستعدًا لعمل أي شيء في سبيل ألا يفقد العميل الوهمي الذي بدأ يمنحه دخلاً ثابتًا.

- هناك بعض التفاصيل في التقرير قد أعجبتني جدًا – قالت إلينا – مثل إبراز المخبر لعمره الشخصي. لكن لم يعجبني استخدامه لصيغة الجمع نحن " نحن اعتقدنا، نحن فكرنا " التي توحي لي أنه قديس، وليس إنسانًا من لحم ودم. عليه أن يستخدم صيغة (أنا) في المستقبل، ،أن يحكي الأشياء كما يحكيها لصديق، لا لمجلس إدارة، أتفهم ما أريد أن أقوله.

- نعم يا سيدتي – أجابها الصوت بنبرة كراهية واضحة. قررت "إلينا" أن تخفف من الضغط عليه:

- أرجو ألا تسيء فهمي. أضافت – التقارير رائعة مكتوبة بشكلٍ رائع لكن ينقصها الصوت الشخصي للراوي، ينقصها صوت الإنسان الذي يرى ويسمع ويبدي رأيه.

- هل أعجبتك التقارير حقًا؟- سأل الصوت وهو في حاجة إلى تقدير لمجهوده.

- رائعة كما قلت لك، بها نقاء في اختيار الألفاظ، لكنها تعتبر محتوى للأحداث بشكلٍ مفرط، كما لو كان المخبر الذي يروي قد وقع في بوتقة الصيغ والجمل المصنوعة ولا يستطيع أن يتخلى عنها. فمثلاً في التقرير الأخير نرى صورة المرأة "إلينا رينكون" (أعتقد أن هذا اسمها) ما زال لديها الكثير لتكتمل ملامحها. لقد أصاب المخبر عندما وصفها بأنها غائرة العينين، لكننا لا نعرف هل هذا سمة أساسية في وجهها، أم أنه نتيجة نظرة لامرأة معذبة. أيضًا لا نعرف هل هي أنيقة، هل هي سعيدة أم أنها تشعر بالعزلة.

- لكن هذه الأشياء – حاول الصوت أن يبرر موقفه – تنتسب للمشاعر الداخلية، يجب أن تدركي ذلك.

- أدرك أنت ما أقول - أجابته "إلينا" وأخذت رشفة ويسكي بصعوبة - هذا هو ما أريده، المشاعر الداخلية، تقارير تصف بقوة المشاعر الداخلية.

في هذه اللحظة بدأت ساعة الحائط تشير للساعة السابعة. وجهت "إلينا" سماعة التليفون ناحية الحائط الذي تعلق فيه الساعة، وعندما انتهت الدقات تحدثت مرةً أخري:-

- أسمعت؟

- الدقات؟ سأل الصوت.

- نعم الدقات. إنها دقات ساعة حائط جميلة ومميزة، معلقة في صالون القصر الذي أحدثك منه، وأنا متكئة على الأريكة، أريكة من الجلد. الساعة والأريكة والصالون ملكًا للشخص الذي نعمل أنا وأنت من أجله، كل منا في مكانه، وكل منا له وظيفته الخاصة. أستطيع أن أؤكد لك أن عميلنا، رئيسي في العمل، رجل كريم بشكلٍ كبير، عندما نعطيه ما يطلبه، وما يطلبه منك هو الأشياء الداخلية، المشاعر؟ اتفقنا؟

- اتفقنا - أجاب الصوت بشكلٍ حازم، وبدا أنه قد فهم، وأخذ على عاتقه تحقيق العرض بنفس راضية.

- هناك شيء آخر - أضافت "إلينا" - لا تضيع وقتك في البحث عن أعمال "إنريكي أكوستا" التعيسة. نحن نعرف وضعه بشكلٍ متكامل. أكتب لنا تقريرًا بعيدًا عن الإطناب، لكنه شيق، عن ماضيه، بالإضافة لتوضيح كيف وصل إلى مكانته الحالية. افهمني جيدًا، لا تصف أكثر من اللازم، أكتب ما هو مهم.

عندما وضعت السماعة، شعرت بالرضا يفيض من جسدها ويخرج من جلدها. ولأول مرة منذ زمنٍ طويل لا تشعر بالتأثير

المدمر الناتج عن اختلاط الحشيش والويسكي في جسدها. أشعلت سيجارة، وذهبت لتجلس فوق أريكة أمها، تراودها فكرة البدء في قراءة رواية، لكن كانت هناك درجة من الاستثارة تستحوذ عليها وتمنعها من التركيز في القراءة. تركت الكتاب وركزت في الإنصات إلى تك تاك الساعة. كانت الحياة قد فقدت هذا الجو الجنائزي الذي سبق وتلى أيام وفاة أمها. ومن خلال نافذة الشرفة الكبيرة كان الضوء النظيف، الأزرق، يتوغل في الغرفة ويشير إلى وجود البحر. فجأة شعرت "إلينا" أنها هي والساعة والأريكة يشكلون دائرة،و أدركت بشكلٍ غامض أن خوفها في الأيام الماضية لم يكن لتنبئها بإمكانية أن تجدَ أمها جالسة على الأريكة، وإنما لتنبئها بأنها ستنسلخ من شخصيتها الحقيقية لترتدي شخصية أمها، وأنها في هذه اللحظات كانت تتصرف على أنها هي الاتحاد والصلة، لأنها كانت منجذبة لهذه العناصر المشتركة.

هذا الشعور لم يؤثر على أحشائها في الحال، ربما لأنه جاء في لحظة عالية من لحظات اندماج الحشيش مع الويسكي، واندماجهما معًا يخلق هذه اللحظات. ولكنها أدركت أن هذا الشعور له مظهر شرير. كل ما كان يشغلها حينئذٍ هو التفكير في قرينتها، وسعدت عندما شعرت أنها وهبتها لحظاتٍ ممتعة، بلا شك، خلال حوارها مع المخبر السري

وصل زوجها إلى البيت في الساعة التاسعة، ودخنا سيجارة حشيش سويًا في المطبخ قبل تناول العشاء. كان من المعتاد ألا يتحدثا، لكن صمتهما لم يكن به أي توتر أو شد، أو كانت هذه الأشياء موجودة ثم اختفت منذ زمنٍ طويل.

- هل رأيت "مرثيدس"؟. سألت "إلينا"

- لماذا؟ أجابها "إنريكي"

- أعلم أنكما تتقابلان باستمرار من وراء ظهري وهذا لا يهمني.

- نحن لا نتقابل من وراء ظهرك - قال "إنريكي" بإشارة إرهاق - يبدو أنك تتحدثين عن عشيقة لا عن ابنة. فبيننا علاقة وثيقة، لم تستطيعي أنت أن تعقديها معها.

- وهل هذا ذنبي؟

- لا ألقي الذنب على أحد، فقط أقول ما يحدث.

- ما رأي "مرثيدس" فيّ؟

- عليك أن تسأليها هي، لكنني أعتقد أنك كنت دائمًا واقفى على مسافة بعيدة من علاقتكما كنت أمًا باردة، وهو الشيء الذي أبعد كلاً منكما عن الأخرى. فأنت مثلاً تعرفين أنها كانت تعشق أمك، لأنها كانت جدة طيبة، ومع ذلك لم تحضري الدفن.

- كنت أشعر أنني مرهقة - أجابته "إلينا" بحركة قاسية. لم يضف "إنريكي" شيئًا. وجاءت من الصالون دقات الساعة المتقطعة لتقطع الصمت المتوتر للدقائق الأخيرة. حاولت "إلينا" أن تغير نبرتها.

- بالمناسبة - قالت - من أيام وأنا أبحث عن كتاب (التحول) "لكافكا"، في المكتبة لكنه اختفى.

- معي في المكتب، لقد انتهيت من قراءته، لكنني دائمًا أنسى إحضاره معي كل يوم.

- كيف قرأته مرة أخرى في وقتنا هذا - ابتسم "إنريكي" قبل أن يرد.

- فكرت منذ فترة قريبة أنني دائمًا كنت أقرأه من جانب الضحية، فقررت أن أقرأه من الجانب الآخر، محاولاً أن أضع وجهة نظر آباء الحشرة ورئيسها وأخيها أمام عيني.

- وماذا؟

- حسنًا، كان مرتبطًا بشيء آخر أكثر تعقيدًا.

في الأيام الماضية كان لدينا مشروعًا لبناء حي هيكلي لوزارة الإسكان، وعندما ذهبت إلى هناك رأيت ظروف الحياة، وتذكرت صراع الطبقات، وكل هذه الأشياء.

في هذه الليلة، وبعد أن دخنت سيجارة حشيش، أدركت أننا، في زمن ماضي دائمًا كنا نتكلم عن صراع الطبقات من وجهة نظر الخاسرين. ومع ذلك، كنت أنا شخصيًا أتربح من هذا الصراع في السنوات الأخيرة. لكني ما زلت أتحدث كما لو كنت أحيا داخل حي هيكلي، حينئذ قررت أن أغير من نفسي.

وضعت إلينا طبق السلطة فوق المائدة، نظرت لإنريكي كما لو كانت تحاول أن تتعرف عليه من جديد، كما لو كانت تبحث في وجهه عن صورة ضائعة، وأخيرًا قالت:

- أنت وقح، وهذا هو كل شيء.

(٦)

بدأت "إلينا" في الأيام التالية تفقد خوفها من الأريكة. كانت تتناول قهوة الصباح وهي جالسة عليها، تحت تك تاك ودقات الساعة التي كانت تقيس الإيقاع الخاضع لقانون زمني تنمو تحته سلسلة مظلمة من دلالات الاستمرار غير المتوقع والموضوعية الطارئة. كانت هناك حبكة ترتبط بوجودها وتبدو أنها تنظم نفسها من وراء ظهرها. ليس من وراء ظهرها بالمعنى المفهوم، وإنما في أكثر جوانب حياتها إظلامًا.

قرأت إلينا وهي جالسة على الأريكة التقرير الثالث الذي بعثه المخبر السري، وكان يقول:-

((نستطيع أن نلخص إنريكي أكوستا في ثلاثة سطور ونستطيع أن نكتبها في مائة صفحة، وهذا يتوقف على المكان الذي سنحكي منه الحكاية، كما يتوقف على من سيدفعون لنا وعلى القيمة الرمزية التي نخصصها لهم. والمخبر في هذه المهمة يميل لأن يضع تحرياته في أكثر الأماكن صنمتًا في حياة الهدف، الأماكن الخرساء، هكذا تقال، وذلك لميول شخصية وبسبب نوع من المهام نقوم به إلى الآن. ففي هذه الأماكن الصماء تصل التصرفات والأصوات بوضوح لا ريب فيه، وهذا الوضوح يسمح بكتابة تقارير موضوعية خالية من أي لبس نتج عن أي تأثير.

أقول هذا لأن الطلب المحير الذي طلبه مني العميل، وهو وصف مشاعري الداخلية، وبالتالي مدى تأثير هذا الهدف على

شخصيًا، وضعني أمام رغباتي الشخصية كإنسان مثقف. ربما يبدو لفظ مثقف مبالغًا فيه لهذا النوع من الثقافة الذي حصله أبناء عملنا هذا، لكنني بالفعل مثقف، ولن أكذب في سبيل موضوعية لن تحاسبوني عليها. أنا خبير جنائي فاشل، لكنني خبير جنائي في نهاية الأمر. لقد قمت بعدة دراسات متعلقة بهذا المجال، ولي بعض الكتابات التي ربما تحظى بشرف النشر في يومٍ ما، فقد حقق آخرون، أقل مني جدارة، هذا الشرف.

وبالرغم من هذا التناقض المؤلم المتعلق بالمهنة، إلا أنه يبدو شيئًا لا يمكن تجنبه، لأن عليَّ أن أكسب رزقي وأن أضيء جزءًا من حياتي. وقد وضعني العميل أمام رجل، إنريكي أكوستا، نقيضي في أشياء كثيرة، صورتي السلبية.

ويمكنني أن أقول إن الهدف ينتسب إلى عائلة من الطبقة الوسطى التي حققت مستوى اقتصادي في الستينيات. وأنه درس في كلية الحقوق، وهناك تعرف على من أصبحت زوجته اليوم، إلينا رينكون. وأنه اشترك بشكل إيجابي في الحركات الطلابية في هذه الفترة، وأصبح قائدًا لأحد الأحزاب اليسارية، التي اختفت الآن، أو ابتلعتها الأحزاب التي تشغل السلطة في الوقت الحالي، أو على الأقل تشغل هيكلها.

يمكنني أن أواصل تقريري بهذه النبرة، وأن أذكر المعلومات والأسماء والتواريخ، وأن أكتب سيرة ذاتية مترابطة أو غير مترابطة، لكنها متضمنة شهادات أو مواقف محددة، وصفية ونقدية، وربما تشكل جسد هذا التقرير وتهبه الضمان. أستطيع أن أقول إننا ربما كنا زملاء، لأننا في سن واحدة. مع أنني أبدو أكبر سنًا، وإننا قد درسنا الحقوق في كلية واحدة وسنوات واحدة، بالرغم من أنني اعترف أنني قد تخرجت في دراستي، حيث وصلت للثانوية في

عمر متأخر، وكان عليّ أن أوزع وقتي ما بين الدراسة والعمل الذي لم يترك لي وقتًا لتكون لي علاقات شخصية. لكنني أرى أن كل هذا ليس من الضروري ذكره، إذا ألح عميلي في أن أصف مشاعري الداخلية. في رأيي، وهذا هو ما يريده من سيدفعون لي، إن هذا الهدف، وهو حاليًا يمتلك شاليه لأنه يكره النباتات، قد خدع الثورة وهي في قمتها، وبعد ذلك، مثل آخرون غيره، بدأ يهيئ نفسه رويدًا رويدا ليشبع رغباته المالية والجنسية. وبدون أي قطيعة للحياة السياسية، بدأ يتسلق بشكل غير محسوس وببطء لأصحاب السلطة، واليوم وجد نفسه على القمة بكل راحة. أعرف هذا النوع جيدًا، إنه ألقى بنا على الأرض وداس علينا في الطريق ويجب أن اعترف. إنه كان ينقصنا الذكاء الحاد، كنا في حاجة لهذه الوساوس الضرورية لننتبه في الوقت المناسب لما سوف يحدث.

إن الاعتقال بالنسبة لهم كان شعارًا، كان شيئًا مثل جروح الحرب، لكن بالنسبة لي كان يجب عليّ أن أترك المجال، وأن أتخلى عن استعدادي الطبيعي للعمل كخبير جنائي. قالوا إنهم أصحاب الثورة، وبعد ذلك أصبحوا يشغلون مكاتب السلطة، ومجالس الإدارة والعناوين الرئيسية التي جعلت الناس ينسون أصولهم، كما نسيتها أنا. وهم الآن كما كانوا قبل ذلك، مجموعة من السادة، لكنهم يحتفظون بفترة فاصلة أدمنوا فيها الحشيش أو الكوكايين، أو اعتادوا نوعًا من الموسيقى لا أفهمه، أنا وأمثالي، لأنهم اعتقدوا أنهم بذلك سيكونون مختلفين عنا. ولعدالة القدر، أصيب بعض منهم بالسرطان أو الإيدز، وتكدسوا في العيادات الدولية المشهورة، ليعتنوا بموتهم، كما كانوا يتكدسون قبل ذلك ليجملوا من صورهم. إنهم مجموعة تيوس، أبناء عاهرات، وإنريكي أكوستا على رأسهم، لأنه كبيرهم، لأنه عدوي. هذه هي

مشاعري الداخلية وما عدا ذلك حكايات. اتفقنا. وبالنسبة "لإليا رينكون" زوجته فلها قصة مشابهة بقصته لكنها امرأة، بالطبع وبالمناسبة فإن الهالات السوداء حول عينيها هي بلا شك نتيجة لإدمان المخدرات بالرغم من أننا نغامر لو قلنا أي مخدر تدمن أو كيف تتعاطاه، وهي قليلة الخروج وعندما تخرج لا تعرف في أي اتجاه تسير ودائمًا ما ترتدي نظارة شمس لتخفي اتساع حدقة عينيها غير الطبيعي. منذ وقتٍ قريب طردت خادمتها التي عقد معها المخبر علاقة بدون أن يحصل على أي معلومة دقيقة منها، لأنها امرأة منحدرة ثقافيًا ضعيفة الموهبة في الملاحظة. و"إلينا رينكون" خليط من ربة منزل معاصرة وامرأة متحررة لا تحتمل أعباء عمل اعتيادي، وطريقة لبسها ليست خارقة للعادة، وأيضًا ليست بسيطة. وعادةً ترتدى ملابس غالية، بالرغم من أنها تبدو أرخص من ثمنها، عمومًا، هي لا تطمح أن تظهر أكثر شبابًا)).

استحوذت الدهشة على "إلينا" بعض الوقت، كما لو انفجرت بين يديها قنبلة صممتها بنفسها لشخصٍ آخر. وظلت خلال وقت غير معدود متأملة ضوء النافذة الكبيرة، تحرك ساقها اليمنى التي تضعها فوق ساقها اليسرى بحركة تشبه حركة رقاص الساعة، الذي يخرج التك تاك، المعلق خلف رأسها. كان الليل قد حل واكتسب السحاب القليل اللون البرتقالي، وتفتق في كرات صغيرة تشبه القطن التالف، كل هذا كان يوحي بأن الحياة قد أصيبت بمرض. كانت في نفس هذا الوضع عندما جاء إنريكي، لكن، قبل أن يدخل الصالون، كان لديها وقتًا كافيًا لتخفي التقرير وتعيد ملامح وجهها إلى طبيعته. لف زوجها سيجارة حشيش وقدمها لها، لكن "إلينا" رفضت.

- لماذا؟ - سأل إنريكي.

- بدأت تتعبني في الفترة الأخيرة

- هل عادت لك آلام القولون؟

- ليست آلام القولون بالتحديد - أجابته "إلينا" - إنه ألم عام، فعندما أدخن أفقد السيطرة على الصور.

- أي صور؟

- صور حياتي، ماضيي وحاضري ومستقبلي، وأنا عجوز، إذا أمكنني أن أتحدث كما لو كنت شابة.

- أنت تقضين وقتًا طويلاً في البيت. ابتسم إنريكي.

- دائمًا تخيفك هذه الحوارات، أليس كذلك؟

كان إنريكي قد اضطجع على الأريكة، واضعًا يده اليسرى خلف رأسه وبيده اليمنى سيجارة حشيش، ينظر إلى "إلينا"، التي ما زالت جالسة على أريكة أمها. ابتسم إنريكي، كان يبدو في عنفوان شبابه في هذا اليوم.

- لا ليس كذلك، - قال - في حياتي كلها لا تخيفني إلا أشياء قليلة. أنا مشغول بك، بأسلوب حياتك، بهجرك لأصدقائك، بعزلتك، بهذه العادة الغريبة التي تجعلك تعودين مرات كثيرة إلى نفس الأشياء. إلى أشياء... - نظر إلى الساعة بوجهٍ مستاء. عندي اليوم عشاء عمل هام، عليّ أن أغير ملابسي.

- لقد كويت لك قميصك الوردي.

- شكرًا، وأنا أحب أن أرتديه.

نهض إنريكي، طفا السيجارة، دخل غرفة النوم. سارت خلفه "إلينا"، جلست على حافة السرير تتأمله، وأخيرًا قالت:-

- ماذا يهبك الحشيش بعد كل هذه السنين.

- أقل مما كان يهبني قبل ذلك، لكنني ما زلت أجد فيه فائدة. ضعي في اعتبارك أنني لم أدخن أبدًا مثلك. هل تتذكرين العام الذي ذهبنا فيه إلى المغرب؟ ظللتي ثلاثة أيام رافعة رأسك للسماء وللشيطان ولكل ملكوت الكون. دائمًا تميلين لنسيان تجاربك سريعًا.

- لكن ماذا يهبك؟

- يهبني المنظور للحياة، يجعلني أرى الأشياء بلا مشاعر، يجعلني أدرك الفخ.

- أي فخ؟

- الفخ الذي يكمن وراء كل الأشياء. بفضل الحشيش مازلنا أنا وأنت نواصل حياتنا سويًا، جنبًا إلى جنب. من لم يجربوا الحشيش اعتقدوا أنهم باستطاعتهم ابتداء علاقة مميزة، وكما ترين، فقد تساقطوا اثنان اثنان في إعادة نفس الأشياء. إن الحشيش مازال يساعدني لأمارس الحب.

- لكننا لا نمارس الحب.

- أنا أتكلم بوجهٍ عام.

- أنا لا أفهم ما تقوله عن الفخ؟

انتهى إنريكي من عقد ربطة عنقه، وذهب ليجلس على السرير بجانب "إلينا"، تاركًا مذهب الثقة السابق، وهذا جعله يبدو عجوزًا، بدا أنه فكر عدة لحظات، وبعد ذلك قال:-

- لا أعرف إلى الآن كيف أشرح لك ذلك. وليس لدي أي رغبة في أن أبذل جهدًا لأفعله، لأنني أكتفي بفهمه بالحدس، بجانب الذكاء، أو بجانب الأمعاء المكلفة بفهم هذه الأشياء. لكن هناك فخ رئيسي أنا وأنت نخضع له، وحشد من الفخاخ الأخرى التابعة نستطيع أن نتجنبها أو نقع فيها. أنا شخصيًا قررت أن

أتجنب الفخاخ التابعة. هل تتذكرين عندما مات أبي؟ كنت قد ذهبت لرؤيته قبل ذلك بأيام، وكان حينئذٍ يخلط كل الأشياء ببعضها. ربما كان لا يعرف من أنا ولا من أين جئت لكن جاءت لحظة بدا فيها أنه عرفني. واعترف لي بشيء غير كل حياتي، لكني لن أقوله لأنني أكره هذه العبارات ذات الطابع الشفاف، لكنها كانت مثل السم أو الإلهام الذي تحرك بداخلي على طول كل هذه السنوات، وساعدني الحشيش على إدراكها، بالرغم من أنه لم يعلمني كيف أشرحها.

- بماذا اعترف لك؟

- قال لي إنه قد مارس العادة السرية في اليوم السابق، وليفعل ذلك لجأ إلى استوحاء نفس الخيال الذي استخدمه في المرة الأولى التي فعلها. التزم الصمت لعدة لحظات ثم أضاف "في الحقيقة لقد استخدمت دائمًا نفس الخيال، بعاهرات مختلفات". أفهمتني؟ كم مرة يمارس الإنسان هذه العادة السرية على طول حياته؟ ألف مرة؟ مئات من الآلاف؟ مليون؟ لا أعرف. لكنني أعرف أن في كل مرة يفعلها يعتقد أنه يكرر تجربة وحيدة، مختلفة، عندما تكون الحقيقة هي أن نظل مرتبطين بنفس الفكرة المتسلطة منذ البداية. أنا لا أعرف ماذا يعني كل هذا، لكنني أعرف أنه أدخل إلى حياتي عنصرًا من المعرفة لم يكن موجودًا قبل ذلك، وساعدني على أن أبلغ نوعًا من الاتفاق مع ذاتي، مع تناقضاتي، مع رغباتي.

- أنا لا أفهمك. قالت "إلينا" كما لو كانت لم تنصت له.

- أقوله لك بطريقة أخرى. هذا الاعتراف جعلني أشعر فجأة أني كبير، وبكل معاني الكلمة، الوحيد القادر على أن يكون كبيرًا.

عندما خرج إنريكي من البيت، ظلت "إلينا" على الأريكة وبدأت في البكاء، بالرغم من أنها لم تشعر باستحواذ أي ألم أخلاقي أو جسدي عليها يبرر هذا البكاء، لكنه كان نوعًا من الراحة.

كما لو كانت أعضاءها قد قررت خفض أسلحة الدفاع والسماح لكبريائها بالانكماش، بالسقوط في اتجاه تجميع القوة.

فكرت أن الدموع ربما تقوم بالوظيفة التي كان يقوم بها الإغماء في الأيام والأشهر السابقة، حيث كانت تفيق منه مليئة بالقوة. عندما انتهت من البكاء تذكرت العشاء كالعادة، لكن لم يكن لديها شهية لتناوله. فكرت حينئذٍ أن لديها رغبة في لف سيجارة حشيش والاضطجاع على الأريكة لمشاهدة التلفاز حتى يعود زوجها، لكنها ضمت هذه الرغبة إلى شرب كونياك وتناول أقراص أمها، وأن تقرأ تقرير المخبر السري. قررت ألا تفعل ذلك. في الحقيقة لم يكن هذا قرارها الشخصي، كان يبدو أنه قادم من إرادة غريبة عنها، بالرغم من أنها مرتبطة بها بروابط لا يمكن رؤيتها. فكرت بضربة ساخرة أنه ربما كانت إرادة قرينتها، التي قررت في الآونة الأخيرة أن تعتني بها، تعتني بنفسها. من المؤكد أن تأثيرات الحشيش التي كانت تعشقها بالأمس، لا ترغب فيها اليوم، وقد حدث هذا الإحساس بطريقة بسيطة وبلا مبرر، مثل بقية الأشياء الموجودة في الحياة. قررت أن تذهب إلى السرير وأن تقرأ حتى تجذب الكلمات النعاس. وبعد أن اضطجعت، جاءتها ذكرى قديمة، أيضًا بلا مبرر. تذكرت جوريجوريو صامصا، هذا الشخص الذي أحبته بصدق في زمنٍ قد مضى. وفكرت أنها في السنوات الأخيرة قد تحولت إلى حشرة غريبة، لكنها على عكس حشرة كافكا. بدأت تستعيد ذكرياتها القديمة قبل موتها، قبل أن يقتلها الآخرون. استثارها هذا التفكير، لأنها عرفت بالحدس أنها لو استطاعت أن

ترجع عن هذا التحول ستصير الأشياء مختلفة، لأنها ستسحب من نفسها قوة خارقة، وحكمة ربما تواجه بها الخوف من ميكانيكية العالم أو هؤلاء الذين يديرون هذه الميكانيكية لمصالحهم الشخصية، وبالطبع ضدها. كانت ستمد يدها لتلتقط رواية فوق الأباجورة منذ شهور، لكن جاءتها دفعة، ليست دفعة خوف بل رغبة في المعرفة، ساقتها لتفتح درج الكومودينو وتأخذ واحدة من كراسات أمها. وكالعادة، بحثت بالصدفة عما كان يبدو بداية حدث وقرأت.

((ذهبت إلى بلد أجنبي مرة واحدة فقط في حياتي، وكنت سعيدة الحظ حيث نزلت في أحد الفنادق، وذلك عندما اصطحبني زوجي إلى مدينة بورديو الفرنسية، حيث بعثته المؤسسة التي يعمل بها ليشرف على بعض الأعمال المتعلقة بتخصصه. مكثت هناك لمدة يومين فقط، ولم أخرج من الفندق خلالها، لأنه كان جذابًا، كما أنني كنت لا أعرف كيف أتحرك في المدينة. خرج زوجي في الليلة الأولى ليقوم ببعض الارتباطات الاجتماعية التي لم أكن مدعوة بالاشتراك فيها. أتذكر أنني في هذه الليلة كنت أرتدى قميص نومي الخاص الذي كنت قد حملته معي وكنت في انتظار زوجي. في أثناء ذلك كنت أتأمل خصائص الغرفة، وأقلب صفحات كتاب في اللغة الفرنسية، قد وضعته لي إحدى بناتي في الحقيبة لأتعلم بعض عبارات هذه اللغة. كان قميص نومي غاية في الإثارة، لأنني كنت أفكر أن التواجد في دولة أجنبية معناه أن أشعر أنني إنسانة أخرى، وأننا نستطيع أن نتصرف كما لو كنا آخرين، كما لو كنا قد تعودنا على السفر إلى أماكن مختلفة من العالم الرحب، وأن نغوص في الحياة الخليعة التي يحياها هؤلاء الناس الذين يتحركون كثيرًا وبكل تلقائية. وفى لحظة محددة ذهبت إلى غرفة الحمام لأرى جسدي في المرآة، فمرآة الحمام كانت كبيرة جدًا وليس بها أي عيوب. كما أن الحمام كان مضيئًا بأنوار بيضاء ومتعددة،

بيضاء جدًا ولامعة مثل بقية الأدوات الصحية (حوض الغسيل، حوض الاستنجاء، حوض الحمام، صحن المرحاض)، التي تبدو أنها أثاثات من أحسن ما يكون أكثر منها أدوات صحية. وبالرغم من أن ما كنت سأفعله كان يبدو لي إثمًا، ألا أنني بدأت في فعله. وقفت أمام المرآة، وضعت اللمسات الأخيرة لشعري، غسلت أسناني، وبعد ذلك أنزلت حمالة قميص النوم، وتأملت نهداي، أكثر الأماكن جاذبية في جسدي. لم يكونا كما كانا في أيام شبابي، لكن كانا لا ينقصهما الجاذبية. ورفعت يداي إليهما من الداخل لأرفعهما قليلا لأعلى، فلاحظت حينئذ وجود ورم غريب في الجانب الأيمن. اعتقدت أنني بدأت أعرق من الخوف، وكنت على وشك أن يغشى عليّ عندما جلست على صحن المرحاض، حيث رفعت حمّالة القميص وبدأت انظر لرسومات القيشاني الموجودة على الحائط. فكرت حينئذٍ أنه ربما كان إحساسًا كاذبًا، لكني لم اتجرأ لأتحقق من ذلك. بعد ذلك فكرت في نوع الورم، في حجمه (كان مثل البرتقالة الصغيرة أو ثمرة اليوسفي) وجاءتني فكرة وهبتني بعض السلوى، هي أنه ربما كان موجودًا منذ سنوات كثيرة لكنه كان ينمو ببطء شديد، لهذا لم انتبه إليه، حيث أنني قبل ذهابي للخارج، لم اتجرأ أبدًا على لمس نهدي بهذه الطريقة. وبالتالي يمكنني أن أعيش سنوات طويلة، على ألا أعود للمس نهدي ولا للسفر إلى الخارج لكيلا أنتبه له، وربما أنساه، وقد أبلغ من الكبر عتيًا قبل أن ينمو هذا الورم بشكلٍ زائد عن اللازم. وعندما تحقق الهدوء لذاتي، وقفت أمام المرآة مرة أخرى، بدون أن ألمس نهداي، تأملتهما بدقة، وتحققت أن حلمة ثديي اليمنى منجذبة قليلاً إلى الداخل، كما لو كانت هناك قوة داخلية تجذبها ناحيتها. يا إلهي، يا للخوف الذي ملأني. كم يسع الجسد البشري خوفًا لا حد له، خاصةً جسد المرأة، لأن أجساد الرجال مخلوقة بشكلٍ آخر، بتعقيدات أقل منا، لهذا فهم يسافرون، ويرتكبون كل

الأشياء المحرمة دون أن يحدث لهم شيء. وبقيت داخل غرفة الحمام وقتًا طويلاً دون أن يغشى عليّ، بالرغم من أنني كنت أسهل ما يكون لأفقد وعيي، خاصةً منذ شربت "إلينا"، قرينتي، الكحول وتناولت الأقراص. انتابني في هذه اللحظات تفكير غريب، ربما يكون تفكير قرينتي التي تمكث في هذه اللحظة في فندقٍ آخر مقابل لفندقي، وترتعش أيضًا من الخوف مثلي.

فكرت أن داخل غرف حمامات الفنادق يكون من السهل نسبيًا عقد اتفاقية مع الجنون. فكل شيء يلمع، وكل شيء نظيف ومزود بمنحنيات طفيفة تجعل الجنون ينزلق من فوق أسطح الأشياء دون أن يتعرض لأي أذى. وبالإضافة لذلك، فإن داخل غرف حمامات الفنادق الغالية (أما البنسيونات فهي شيء آخر، حيث أن الذهاب إلى بنسيون يشبه العودة إلى البيت)، لا أشعر بالبرد، بالرغم من أنني أكون عارية وقتًا طويلاً. عندما عاد زوجي كنت قد أنهيت هذه الاتفاقية، التي كما أقول كانت شيئًا متعلقًا بقرينتي بالطبع، بالرغم من أنها قد قدمتها لي بحسن نية، واضطجعت على سريري بعينين مفتوحتين. في البداية تظاهرت أنني نائمة - لكن بعد أن ألح استسلمت ومارسنا الحب كما لم نمارسه قبل ذلك طيلة حياتنا، بشكلٍ أفضل بكثير من المرات الأولى التي مارسناه فيها عندما كنا شبابًا، لكننا كنا لا نعرف ذلك. لهذا كان يخيفني أن تسافر إحدى بناتي إلى دولة أجنبية، وأن تنزل في فنادق، خاصةً ابنتي "إلينا"، لأن زوجها قد أدخلها في أمور سياسية هي لا تفهم فيها شيئًا)).

أغلقت "إلينا" الكراسة ووضعتها في درج الكومودينو بجانب بقية المذكرات وتقارير المخبر السري. كان جسدها يعرق بشكل غير طبيعي، ويقشعر من الخوف، أو من العزلة. انكمشت في سريرها على قدر ما استطاعت، وتغطت بملاءة السرير، وكررت: ماما، ماما، كما لو كانت طفلة صغيرة عانت من كابوس وانتهى.

وبعد أن انتهت الرعشة تذكرت مرةً أخرى قصة الشاطئ والعملة وربطتهما بصدفة وجود مذكرات أمها في أعماق غرفة نوم أمها، بالرغم من أنه كان كنزًا بالمقلوب، كان نقيض الكنز، لكنه كان يتوقف على استغلالها، بحيث تبدل الأشياء الواضحة بأشياء مظلمة، والمظلمة بواضحة، كما يحدث في التصوير الفوتوغرافي الذي يعيد لنا في النهاية الصورة الحقيقية لواقع قد مضى، قد مات، لكنه قادر على التصرف في حياتنا، خاصةً حياتي. استنتجت ذلك.

بعد ذلك شردت بخيالها مع إمكانية أن تسير إلى الحمام، وأن تكرر أمام المرآة نفس حركات أمها لترى إذا كانت قادرة على أن تتحمل عبء هذا الرعب الذي تركه لها القدر كميراث جامد يدير شئونه وينتقل حتى لا تقع عناصره أبدًا في طي النسيان، لتتذكر من حين لآخر، كنوع من التواضع، أن غرفة حمامها - المضيئة والمليئة بأثاث مثل غرفة حمام أي فندق راق - قد تفوقت على غرف الحمام الأخرى، المقشرة الطلاء والمحطمة مثل حمامات البنسيونات، ذات الأدوات الصحية التي لا فائدة منها غير استخدامها فقط.

الجزء الثاني

(١)

أكتب هذه الصفحات التي لا أعرف كيف أسميها ولا إلى أين تقودني وأنا في الثالثة والأربعين من عمري، أي قبل أن أبلغ بقليل نقطة المنتصف لما يمكن أن نعتبره حياه طويلة جدًا.

هناك أحداث شخصية كثيرة، ذات تفاصيل معقدة، وضعتني في السنوات الأخيرة أمام إمكانية أن أتحكم في وجودي بشكلٍ فعّال. أجد نفسي على بداية شيء لا أعرف تحديده، لكن يمكن تلخيصه في أنني قد أمسكت بزمام حياتي. من المؤكد أنني إلى الآن لا أعرف كيف أفرض سلطتي عليها، كما أنى لا أعرف إلى أي اتجاه سأوجهها عندما أتعلم كيف أقودها. من المؤكد أيضًا أن كل هذا يسبب لي الدوار الذي تتركز تأثيراته في أعضاء جسدي التي ظهرت عليها أعراضًا مختلفة كانت قد توقفت عندما أقلعت فجأة عن الحشيش. لكن كل هذا ذات قيمة ضئيلة مقارنةً بالفوائد التي لم أدركها إلى الآن باللمس، مثل فوائد المغامرة التي نحن على وشك الدخول فيها لا تدرك باللمس.

أكتب السطور الأولى من حياتي وأنا جالسة فوق أريكة مريحة من الجلد، تلك الأريكة التي قضت أمي فوقها معظم سنوات عمرها، ومن ورائي ساعة حائط، أيضًا كانت ملكًا لها، وهذه الساعة تقيس الزمن، لكنه ليس الزمن الذي يحدد حياة الإنسان، وإنما هو الزمن الذي ينظم مدة مغامرتي الداخلية: انسلاخي من شخصيتي. لقد اشتريت مجموعة كراسات صغيرة الحجم، ووضعت بها دبابيس،

تشبه كثيرًا كراسات أمي التي استخدمتها عند كتابة مذكراتها الغريبه والناقصة، تلك المذكرات التي وقعت في يدي بعد موتها.

أنا أقضي حياتي بسهولة، ما بين قراءة مذكرات أمي وكتابة مذكراتي، كما أقرأ أيضًا تقاريرًا تمنحني السرور كلفت أحد المخبرين السريين بكتابتها لي. لقد تعاقدت مع أحد المخبرين الذي لا يعرف من أجل من يقوم بمهمته، على أن يتابع إنريكي زوجي. لكن سريعًا ما انتابتني حالة ملل من مغامراته الجنسية، وصفقاته المالية (بالحلال والحرام) وبالتالي اتصلت هاتفيا بالوكالة - فقط نتحدث عن طريق الهاتف - وقلت له ألا يتابع إنريكي أكوستا، وأن يركز مجهوداته في إلينا رينكون، زوجته التي هي أنا. قليلا ما أخرج من البيت، لكنني أحب أن يصف لي أحد تصرفاتي وأنا في الشارع. وهكذا عندما أخرج في بعض الأيام لأتنزه، أو لأشترى أشياء اتصل بالوكالة وآمرهم أن يتابعوني، لكن هذا لا يحدث دائمًا. وفي اليوم التالي أذهب إلى صندوق البريد القريب من هنا وآخذ التقرير الذي يظهر ما فعلته بالتحديد، وليس شيء آخر. ولأنني قد كلفت المخبر بأن يبدي آرائه الشخصية ومشاعره الداخلية، فهو يقول أشياء عني كنت لا أعرفها عن نفسي، وهذا، بالإضافة إلى أنه يملأ فراغي، فهو يعيد بنائي ويواصلني بنفسي، يعيد لي صورة متكاملة مجسمة عن ذاتي، وكل هذا جعلني أرى أن جزءًا كبيرًا من قلق الماضي كان بسبب شعوري أنني ممزقة، كل أهدافي متناثرة أو متجمعة في أماكن لا تخصني ربما لهذا السبب بجانب أسباب أخرى، عجزت عن تكوين علاقة مع ابنتي التي ما زالت تشعر أنني أم باردة، غير قادرة على الوصول إلى جذور مشاكلها، وعاجزة عن حبي لها.لا يهمني، فأنا أيضا كنت أشعر أن أمي بعيدة عني، ولكنني اكتشفت الآن أنني كنت قرينتها.

إن الزمن الذي تحدده هذه الساعة ويهزني تك تاكها بينما أكتب هذه السطور، يعيد إلى كلٍ منا الأشياء التي تسلمناها خلال حياتنا، ويجمع كل الأجزاء في المكان الذي خرجت منه عندما تهشمت الصورة إلى أجزاء.

ذهبت أمس إلى الملحق التجاري (القصر الإنجليزي)، واتصلت بالوكالة ليتابعوني، واستقبلت اليوم هذا التقرير، الذي يقول ما يلي:-

((خرجت إلينا رينكون من بيتها في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة في اليوم المشار إليه لمتابعتها، كانت ترتدي ملابس خريفية، ولم ترتد جوارب، وهو الشيء الذي لاحظته لأنني تعودت النظر إلى ساقيها، لأنها بقت وقتًا طويلا بدونٍ أن تزيل شعرها، حتى وصل شعر قدمها لطول جسيم، خاصةً ساقها اليسرى، ولأسباب لا أعرفها. أعترف أنني فكرت أنها ربما تكون من أصول تركية لأنني سمعت أن نساء هذا البلد يفضلن الاحتفاظ بشعر أبدانهن الذي وهبته الطبيعة لهن، وحتى ولو خرج في أجزاء في الجسم نعتبرها نحن في العالم الغربي من خصائص الرجال.

حسنًا كنت أقول إنني لاحظت ساقيها، وفي الوقت الذي تحققت فيه أنها لا ترتدي جوارب، لاحظت أيضًا أنها قد أزالت شعرها. وسارت بدون هدف محدد حتى شارع "خواكينِ كوستا"، ومن هناك هبطت فيِ اتجاه شارع "كاستييانا"، بدون أن تفعل خلال كل هذا الوقت شيئًا ذات أهمية، بالرغم منِ أننا نستطيع أن نلاحظ في تصرفاتها العامة شيئًا غريبًا، تصرفًا ملتبسًا، كما لو كانت تتظاهر بإمكانية حدوث لقاء غير مرغوب فيه يخضعها إلى اهتزازات طفيفة في طريقه سيرها، أو في اختيار الشوارع التي تؤدى بها إلى هدفها النهائي: مركز القصر الإنجليزي التجاري الواقع في شارع "كومبليخواتكا". بالطبع، هذا التقرير هو رأيي الشخصي،

لكنه حقيقةً. وفي مركز القصر الإنجليزي أمكنني رؤيتها عن قرب، لأن هذه المراكز المعدة لاتساع زحام كبير، تسهل كثيرًا مهمة المخبر السري حيث يستطيع أن يذوب بين الناس وأن يقترب من الشخص المراقب بدون إثارة أية شكوك. خلعت إلينا نظارة الشمس عندما دخلت في المحلات الكبرى، وبالتالي ظهرت عيناها التي، كما هو معروف، مليئة بالإرادة والخوف والرغبة، ولكن معظم الناس يعتبرونها عيونًا ساهية. أود أن أعترف أنني قمت بعمل دراسة في طريقة النظر لخمسة مجرمين مشهورين، واكتشفت أن معظمهم يشترك في هذه النظرات غير الواضحة التي لا تناسب جريمتهم فأنا أتكلم عن الموضوع عن معرفة بالأسباب.

لقد رأيت في نظرات إلينا رينكون عدم وضوح متميز كأنها على وشك أن تقوم بتصرف مخالف لطبيعتها، أو لطبيعة من يحيطون بها.

من الواضح أن الهالات السوداء حول عينيها، لسببٍ ما، ربما لاستخدام مستحضر تجميل، قد اختفت بشكلٍ واضح، لكن عينيها غير ثابتتين، وهذا ما كان ينقصها قبل ذلك. فكرت أنها ربما تعاني من مرض سرقة الأشياء المعروضة للجمهور في هذه المحلات. حيث أن جنون السرقة، (مثل الهواية المبالغ فيها لبعض ألعاب الحظ مثل القمار) يشكل مرضًا واسع الانتشار بين النساء من طبقتها. لذلك فقد تقربت إليها أكثر من اللازم، لكني لم أرها تدخل شيئًا في حقيبة يدها. دخلت بعد ذلك إلي محلات نسائية وتاهت من نظري ثلاث مرات، حيث استعملت البروفات ورأيتها بقطع ملابس مختلفة. من ناحية أخرى كان عليّ أن أكون بعيدًا لأنه ليس من المألوف وجود رجال في هذه المناطق ذات المساحات الشاسعة. لو كانت إلينا رينكون تشك (وهى المسألة التي أعرفها) في أنها خاضعة للمراقبة، كان يكفيها أن تلاحظ وجودي في مكانين

متميزين لتعرف مهنتي كمخبر.

يجب عليّ إذن أن أبقي خارج نطاق رؤيتها بقدر الإمكان. ومع ذلك فمن المستحيل أن تسرق أيًا من هذه الملابس، لأنها بالإضافة إلى أنها ممغنطة (حيث أن هناك أجهزة إنذار) عادةً ما تسيطر عليها بائعات، واقفات عند مدخل البروفات بشكل استراتيجي.

في نهاية المطاف خرجت إلينا رينكون من الملحق التجاري بدون أن تشتري أية سلعة، وإذا أضفنا سلوكها العام الذي أشرنا إليه سابقًا، لهذا التصرف، لأحاطها بشكل كبير شبهة أنها فاقدة الاتجاه الذي تسير فيه في الوقت الحالي.

وصلت في تفكيري أن زيارتها للمحلات الكبرى ربما يرتبط بعمل علاقة سرية مرتبطة بالجزء الخفي من صفقات زوجها، هذه العلاقة التي، أيًا كانت الأسباب، لم تتمكن من إقامتها في اليوم الذي تابعتها فيه. وعلينا ألا نستبعد احتمالية أن تكون الغاية من تحركاتها يرتبط باستقبال أو تسليم مخدرات أو نقود قادمة من بيع المخدرات. وليس غريبًا أن تستخدم صفقات من هذا النوع الذي يديره إنريكي لغسيل الأموال التي يحصل عليها من صفقاته المالية الخفية.

والتحقيق في هذه الأطراف، إذا رأى عميلي أنها ضرورية، ستتطلب نوعًا من المتابعة أقل تشتتًا من التي قمنا بها حتى هذه اللحظة، وربما هذا النوع من التحري المتكامل، بسبب تعقيده، سيستوجب رفع التعريفة أكثر من التي اتفقنا عليها للمراقبة فقط.

وأخيرًا فإن متابعة إلينا انتهت في الثامنة والربع، وهي الساعة التي عادت فيها إلى بيتها سيرًا على الأقدام وفي طريق العودة لم تفعل شيئًا جديرًا بالوصف، إلا عملية البحث المشار إليها التي من الممكن أن تفسر شكوكها في أنها خاضعة للمراقبة. وهو الشيء الذي جعلني أشدد في الإجراءات الاحتياطية وأن أحول هذه المهمة من عمل بسيط وروتيني إلى عمل مليء بالصعوبات الصغيرة المتعددة.

(٢)

بالرغم من نيتي الصادقة في كتابة مذكراتي، إلا أنني لم أكتب شيئًا منذ عدة أيام، وهذا يشعرني أنني غير موجودة. هل كان يحدث لأمي نفس الشيء؟ منذ أن بدأت فكرة المذكرات وأنا أشعر أنها قد اقتحمتني مثل الفكرة المتسلطة. أعلم أن مذكرات من هذا النوع هي نوع من الخريطة المجملة التي تحكي أكثر المناظر بروزا في حياة الإنسان الخاصة ومع ذلك فإن مذكراتي هي حياتي نفسها في تخيلي. قرأت ذات مرة شيئًا يتعلق بأناس يخلطون بين الأرض والصورة (الخريطة)، ربما هذا هو ما يحدث لي، وربما لهذا اشعر أنني لم أكن موجودة في الأيام الماضية.

لكن الواقع لم يكن هكذا. لقد عشت في جحيم أريد أن أخرج منه، لكن هناك جزء من نفسي لا أستطيع السيطرة عليه، يتشبث به. بعد السطور الأولى من هذه المذكرات، المغلفة بالتفاؤل، والتي عبرت فيها عن الإحساس الغريب والمريح لامتلاكي زمام حياتي بلغت توازنًا طارئًا تهشم بعد ذلك إلى أجزاء منذ ستة أو سبعة أيام. خرج إنريكي ليتناول العشاء خارج البيت، وبقيت أنا مستيقظة أشاهد فيلمًا في التلفاز. وخلال وقت الراحة ولأن الفيلم كان يعجبني جدًا، ارتكبت خطأً فادحًا: قمت بلف سيجارة حشيش لاستمتع أكثر بهذا الفيلم. في البداية سار كل شيء على ما يرام، استمتعت بالإحساس بالتكامل العقلي الذي ينتج عن تناول الحشيش بعد الإقلاع عنه، لكن، بعد فترة زمنية قليلة، وربما بسبب جلستي،

بدأت أشعر بضيق في التنفس أرجعت سببه إلى تجمع الأدخنة في منطقة الحجاب الحاجز، لذا غيرت جلستي بدون أن يخف الضغط الذي سريعًا ما تقوى بإحساس بالاختناق بسبب البقاء بلا هـواء. خرجت إلى الشرفة،أخذت نفسًا عميقًا بفم مفتوح، لكن الجو كـان مليئًا بالرطوبة التي أعاقت حركة الهواء في الشعب الهوائية. كنت أتنفس كما لو كانت رئتاي قد فسدتا، وهذه هي لحظاتي الأخيرة.

وبدون أن أبالي أنني قد دخنت سيجارة حشيش، لجـأت إلـى الأقراص المهدئة لأهدأ، وبعد قليل توقعت أن هذا الضغط له حـل واحد هو الإغماء. ومن حسن حظي استطعت الوصـول لغرفـة النوم. وهناك سقطت فوق السرير عدة لحظات قبل أن أفقد وعيي. استيقظت بعد ساعتين، غارقة في عرقي، وبألم في أمعائي. إلـى الآن لم يصل إنريكي، وكان التلفاز، الذي ما زال مشتعلا، يعرض فيلمًا له رواية تقليدية.

ذهبت إلى غرفة الحمام، لكنى لم أستطع التقيؤ. تذكرت حينئـذٍ أن أمي كانت تشير في مذكراتها إلى هذا الموقف، وأنها حاولت أن تطرد ما ببطنها ولم تستطع، وأطلقت على هذه الحالـة القولـون المغلق، واستنتجت أن هذا هو ما يحدث لي. اكتفت أمي بأن تطلق اسمًا على الألم لكي يهدأ قليلاً، وبهذه الطريقة استطعت الوصـول إلى الصالون لأطفئ التلفاز وأغلق باب الشرفة. بعد ذلك خلعـت ملابسي ودخلت في السرير يصحبني إحسـاس بالعزلـة التـي لا تحتمل، فكرت في ابنتي مرثيدس، وفي زوجي إنريكي، كما لو كانا جزءين من حياتي قد انفصلا نهائيًا عنها. كان يبـدو أن حيـاتي مشوهة وغير نافعة. أعتقد أنني طيلة العشرين عامًا الأخيرة كنت أحمي نفسي من العواطف بدون أن يخطر ببالي أن كـل وسـيلة للدفاع كانت تعنى تشوهًا. كان الحزن يطرق جزءًا ما في جسدي،

ومع ذلك عجزت عن البكاء. حينئذ أشعلت النور وأخذت واحدة من كراسات أمي ووجدت فقرة أثارت مشاعري علي وجه الخصوص، كانت تبدو مكتوبة من أجلي، من أجل هذه الليلة بالتحديد، لأنها كانت تقول ما يلي:

((كثيرًا ما يكتبون عن الجسد البشري بدون أن نعرف شيئًا عن أصوله وآلياته. هناك من يحتارون في تعريفه هل هو قارة أم جزيرة؟. إن الجسد أقدم من أن نتمكن من مقارنته بقارة مكسورة استطاعت أن تنجو من عصر الجليد والزلازل والانفجارات الداخلية التي أعجزتها عن كل شيء ما عدا القيام بوظائفها الميكانيكية التي تكرر نفسها بلا حماس. أنظر إلى جسدي الشخصي. العاري فوق سريري، ماذا أرى؟: سطحًا مضادًا ينحدر في تجاه بطني، وبالأسفل وبين ساقي يوجد شعر كثيف يختبئ تحته ثقب مغارة يؤدي إلى المتعة أحيانًا، وأحيانًا إلى الألم ودائمًا إلى اليأس، وقريبًا من نظري أجد منطقة صحراوية من مناطق هذه القارة، نسميها الصدر. صدري مسكون بورم سرطاني، يسحب واحدة من حلمتي إلى الداخل. إلى الآن لم أقل هذا السر لأحد. وإذا نقبنا، وإذا فتحنا هذا الجسد وتوغلنا بالداخل، سنجد أعضاءً أيضا قديمة ولكل منها تخصصها، ويكفي أن يفسد عضو واحد لتهلك بقية الأعضاء. ملك من هذه القارة؟ من الذي يسكنها؟ يسكنها الألم والوهم والخوف، كما تسكنها الأحشاء التي تجعلها معقدة ومنفردة.))

بعد أن قرأت هذه الفقرة، وضعت الكراسة في درج الكومودينو وأشعلت سيجارة استمتعت بنكهتها. وكان هذا جسدي الذي يشبه جسد أمي، كما يشبه وجهي وجهها. تراجعت تقلصات أمعائي وذهبت لاسترخى حتى استغرق في النوم. لم أسمع إنريكي حينما وصل. في اليوم التالي انفتح القولون المغلق وتقيأت بلا أدنى مجهود.

منذ عدة شهور وأمعائي تتعامل بهذه الطريقة: إما تمسك وإما تنفجر لكنها عندما تنفجر يبدو أنها تركت شيئًا بداخلي.

لقد وصلت في تفكيري إلى أن بجسدي ورم أو جرح- شيء غريب في أمعائي في نهاية الأمر- هو الذي يعطيني الإحساس غير المريح بأن هناك عنصرًا غريبًا يتحرك بداخلي.

أعتقد أن زوجي إنريكي بدأ ينظر لي بشكلٍ آخر، كما لو كان قد تنبه للتحول الحميم الذي أعاني منه وأجهل في أي اتجاهٍ يسير. لا أعتقد أنه مشغول بي لأن له حياته الخاصة المليئة بكل شيء والتي ربما لا تسمح له بأن يهتم بهذه الأحداث ذات الطابع الأسري. لا أقصد بذلك أنه لا يشعر بي، إطلاقًا، لكنني أعتقد أن عواطفه معلقة في أماكن أخرى (عمله – عشيقاته، ابنتنا) وليس لديه فراغًا في قلبه ليسعني. وأنا مثله، وهذه حقيقة، لقد انشغلت عنه كثيرًا في السنوات الأخيرة، وهذا أدى إلى تشكيل علاقة غريبة بيننا، لا تبعث فينا الضيق، لكنها لا فائدة منها كسند في اللحظة الحاسمة من حياتنا. أعتقد أنه كان ينتظر بأمل أن تحمل ابنتنا مرثيدس، بالرغم من أننا لم نتحدث في ذلك.

منذ أن بدأ الجو في الاعتدال، تعودت على الاستيقاظ مبكرًا، وأحيانًا نتناول إفطارنا سويًا. من الطبيعي ألا نتحدث، أو نتحدث في مسائل عملية، لكنه أحيانًا يحاول أن يدخل في موضوعات متعددة ليرى إن كنت أحتفظ بأسرار في طيات نفسي أم لا. في اليوم التالي اقترح عليّ أن نسافر، لكنني لم أعطه جوابًا مريحًا. كلما اقترب الصيف، يزداد عصبية، لأنه يجد نفسه ملزمًا بالتخطيط لأشياء لا يهتم بها عادةً. أعتقد أنه يحب الذهاب إلى المصيف مع مرثيدس وزوجها، لهذا فإن وجودي معهم يشكل لهم مشكلة خلال هذه المدة.

- باقي أكثر من شهرين على الصيف - قلت له.

- أخاف ألا يمكنني أن آخذ إجازه ولا حتى أسبوعًا- أجاب - لذلك أقترح أن نسافر الآن.

- لا تشغل نفسك – أجبت – فأنا ليس لدي رغبة في الخروج هذا العام.

- على أي حال، فإن السفر الذي أشير لك عليه سنقوم به لأسباب متعلقة بالعمل، لو جئتي معي نستطيع أن نستجم سويًا.

- لا أعرف – قلت – إلى أين؟

- إلى بروكسيل، يجب أن أحل عدة مشاكل في العمل، لكن سيبقى أمامنا وقتًا لنقوم برحلات، نستطيع أن نذهب إلى بروخاس وأمبريس وهولندا. الجو الآن جميل بالرغم من وجود رطوبة.

- لا أعرف، دعني أفكر.

سألته بعد ذلك عما يجب عليه أن يفعله هناك، لكنني لم أستطع أن أفهمه. كان عبارة عن تسليم واستلام توكيلات تجارية. الأمور، عامة، كانت غير واضحة، وبالتالي لم أستطع أن أسيطر على عدوانيتي وقلت له:

- من القليل الذي أقرأه في الجرائد وأسمعه منك يبدو لي أن الفساد يشكل جزءًا من النظام.

لم يتأثر بكلامي. بلّ قطعة خبز في القهوة. كسرها بأسنانه، مضغها ببطء ثم قال:

- إن ما تسمينه فسادًا يشكل جزءًا من كل الأنظمة، كل الأنظمة، بالإضافة لذلك، فبغير الفساد لن تسير الأنظمة: إن الشيء المهم هو أن نعرف في أي جزء من النظام يوجد فساد، وأن نسيطر

عليه حتى لا ينمو أكثر مما تحتمل كل مؤسسة. لكن، هناك جهات مسؤولة محددة يعد الفساد فيها مرغوبًا فيه، وليس سيئًا، والتفكير عكس ذلك، في احسن الأحوال، يسمى سذاجة.

لم اندهش من تأكيداته لأنني فكرت في جسدي الخاص الذي هو في غاية الأمر ونهايته نظامًا، وكان عليّ أن أعترف أن بفضل فساد الأغذية، هذا الفساد الذي يقع في الجهاز الهضمي، يمكننا أن نتحرك وأن ننمو بالرغم من أننا نموت بعد ذلك. فكرت بعد ذلك في المرض، خاصةً مرض أمي الذي احتفظت به على أنه سرخلال سنوات طوال، وعاشت به مع أبي الذي كان صحيحًا. هذا الفساد، الكامن في صدرها، ربما حررها من مرض آخر أكثر انفجارًا. قرأت في مكانٍ ما أن الجسد المريض يعادل المجتمع الفاسد (متفقة مع إنريكي) يقي بقية الأعضاء من الهجمات الطفيلية واسعة الانتشار. لا أعرف. منذ أيام ركبت سيارة أجرة. قال لي السائق إنه قد فقد الذاكرة، لكنه لم ينس الشوارع. لم ينس عائلته وإنما نسي نفسه.

- أعرف - قال لي - إنني كنت طفلا، مثل كل الناس، ومراهقًا وشابًا، لكنني لا أتذكر كيف كنت، ولا أتذكر كيف كنت أفكر حينئذٍ في الحياة.

- وكيف تفكر الآن؟

- مشكلتي الآن ليست أنني لا أتذكر، وإنما أنني لم يصبح لي رأيًا. وأنا أعيش فترة عصيبة في حياتي. وأنتم، أقصد الزبائن، تساعدونني كثيرًا، لأن التحدث معكم يحررني من الأشياء التي تعبر برأسي. منذ خمسة عشر يومًا وأنا أشعر بتحسن، قبل ذلك

كنت أركن السيارة في أي مكان وأشرع في البكاء من اليـــأس. دائمًا كانت ربطة عنقي معوجة وكنت أشعر بضيق في التنفس. كما لو كنت فاقدًا لإحدى رئتاي. في الصحة أعطوني بعــض الأقراص المنومة لأنام، لكنني على الأقل أتنفس بشكلٍ مختلف.

(٣)

ذهبت في اليوم التالي إلى المدافن. اتصلت بالمخبر ليتابعني يمكنني أن أروي ما فعلت، لكنني أعتقد أنه يروي أفضل مني في تقريره، الذي يقول ما يلي: -

((تركت إلينا رينكون بيتها في الساعة الحادية عشر والنصف، يوم ١٨ مارس. كان الجو شبه صيفي. لهذا كانت ترتدي فستانًا خفيفًا ذات ألوان سوداء، مفتوحًا من الرقبة. دخلت كافتيريا قريبة من بيتها، جلست بجانب الحاجز الخشبي، تناولت فنجان قهوة ودخنت سيجارة. لقد تحسن مظهرها العام، واختفت بشكل ملحوظ الهالات السوداء حول عينيها (لاحظت ذلك بالرغم من أنها تستخدم نظارة الشمس أثناء سيرها) تبدو مهندمة في ملابسها أكثر من ذي قبل، الآن ترسم شفتيها،وتمشط ضفيرتها باعتناء. ومع أن ضفائر النساء في مثل عمرها لا تقع مني موقعًا حسنًا، إلا أن ضفائرها تبدو مثيرة للغز. حتى هذه اللحظات كنت أنظر لهذه المرأة على أنها هدف بسيط عليّ متابعته من أجل عملي، فجأة بدأت تكتسب متابعتها موقفًا شخصيًا، لن أحكي عنه شيئًا. ركبت بعد ذلك سيارة أجرة (بالرغم من أن لديها سيارة خاصة إلا أنها لا تستخدمها أبدًا) وذهبت مباشرة إلى المدافن. سارت بلا استعجال، بين طرق المقابر المشمسة وتوقفت في النهاية أمام قبرين. استطعت أن أتحرى بعد ذلك وعرفت أن هناك يرقد جسدا أبويها. ظلت هناك لمدة عشرين دقيقة أو ربع ساعة: بعد ذلك أدارت ظهرها وسارت حتى خرجت. كان

من الصعوبة أن اختبئ، حيث أن المكان غير مأهول وعادةً لا نجد أي زحام هناك. أخذت تاكسي، هبطت منه بالقرب من بيتها، تتنزهت في الشوارع تشاهد الفاترينات. في التقرير الأسبق ظننت أنها تتصرف على أنها همزة وصل في صفقات زوجها المشبوهة، لكنني الآن أعتقد أنها ببساطة امرأة تشعر با لعزلة والملل، تخرج إلى الشارع لتهرب من اختناق المنزل، لا يوجد شيء في سلوكها يشير إلى احتمال آخر، بالرغم من أن تصرفاتها غريبة، حيث أنها تخرج ولا تشتري شيئًا ولا تقابل أحدًا ولا تتجه إلى أي مكان محدد، باستثناء زيارتها القصيرة للمدافن. قبل أن تصعد إلى بيتها تناولت مشروبًا في حانة، ولم تفعل شيئًا آخر.))

كان التقرير موجزًا، ذلك لأني بالفعل لم أفعل شيئًا جديرًا بالذكر. لقد تنزهت وقتًا طويلاً من أجله، لأبرر له المبالغ التي أعطيها له وأيضًا لأنه شيئًا مريحًا أن تتحرك في الشارع وأنت تعرف أن هناك شخصًا يراقبك. أعتقد أنى لو فقدت الوعي في إحدى خروجاتي سيأتي إليَّ المخبر وسيتحمل مسئوليتي حتى أعود كما كنت. حاولت أن أراه وأعرف إن كان يطابق الصورة التي في خيالي، لكنه يختبئ بمهارة. نظرت خلفي في المدافن مرتين أو ثلاث لكني لم أر أحدًا يراقبني. من ناحية أخري، ولأنه قد عدل رأيه فيَّ في هذا التقرير اتصلت به هاتفيًا.

- تقريرك الأخير موجز جدًا - اشتكيت له.
- أنا أدرك ذلك - أجاب. لكن الموقف لا يستدعي أكثر من ذلك، لقد فعلت بالضبط ما أمرتي بفعله.
- نرى أنك منجذبًا لهذه المرأة، تتحدث عنها بشكلٍ آخر.

جاءت لحظة صمت، لكن رد فعله جاء في الحال:

- جائز - قال - من السهل أن نتضامن مع امرأة كهذه - خاصةً لو فكرنا في طبقة زوجها. الحقيقة أنني لا أعتقد أن لها أي علاقة بصفقات زوجها إنريكي. أنا أعتقد أنها مهمشة في كل شيء، فهي لا ترى أحدًا ولا حتى ابنتها.

- لا تنخدع بالمظاهر - قلت - فهذه الشخصيات دائمًا تأتى بالمفاجآت.

- هل سأتابعها مرة أخري؟ سأل بنبرة من السهل أن نلاحظ فيها طلبه

- الآن لا. سأكون على إتصال بك.

يبدو أن هذا المخبر على درجةٍ ما من الشاعرية، التي لا يتوقعها أحد في هذه المهنة. تأملت في العزلة التي نسبها لي، وهذا جعلني أفكر في حياتي بجدية، إنها بالفعل حياة خالية من أي علاقة. زوجي وبقية الناس الذين أعرفهم يعتمدون على سلسلة من الأشياء التي تؤكد لهم باستمرار وجودهم، تلك الأشياء تحتوى على علاقة تشابه. ما هي الأشياء التي امتلكها وتؤكد وجودي في الماضي، ووجودي الآن، لو كنت حقًا شيئًا موجودًا.

أمتلك هذه المذكرات، والحشيش الذي أحاول الإقلاع عنه، وربما أمتلك أيضًا الساعة والأريكة. وهل يوجد شيء آخر. أمتلك أيضًا آمي التي، بعد موتها، شغلت حيزًا في جسدي في نقطة معينة من الجهاز الهضمي. أستطيع أن أتحدث أيضًا، بالرغم من أنه يضحكني، عن قرينتي التي ربما تسمى أيضًا إلينا وقد تكون ابنة قرينة أمي. أمي أيضًا كان لها علاقات كثيرة: مع الكحول، المذكرات، مع ورمها. كيف كانت تتصرف مع ورمها في ليالي السهد؟ بأي طريقة كانت ترتبط به؟ أفتح الآن واحدة من مذكراتها واقرأ كالعادة بالصدفة.:-

"من بين ثمرات الحياة المرة لا يعد الموت أسوأ ثمرة، إن أسوأ شيء هو أن تعيش الواحدة منا بعيدة عن نفسها، كما أعيش أنا منذ سنوات، منذ أن انتقلت إلى هذه المدينة غير الموجودة، ومع ذلك يسمونها مدريد. مدريد غير موجودة. إنها حلم ناجم عن مرض، ناجم عن بعض الأدوية التي نتعاطاها لتقضي على مرض. كل الذين يقيمون في مدريد غير موجودين. وهذا لا يمنعنا أن نسير، أن نشتري فواكه،أن نفتح دفتر توفير. بالأمس نزلت في منطقة لوبث دى أويوس وتجولت في شارع مارثينادو، كان الشارع منكمش الجلد كما لو كان يعاني من مرض الحساسية. أنا أعاني من الحساسية في منطقتين من جسدي، لكنهما لا يضايقاني، لهذا فقد عقدت معهما اتفاقية، والآن أشعر براحة. لكن لم تبتعد عني رائحة الفم الكريهة وفقدان الشهية وفقدان تذوق الطعام، لأن طعمه في فمي مر. وبسبب هذه الأشياء الموجودة في جسدي بدأت أهمل البيت كثيرًا وهذا شيء يشغلني. منذ خمسة عشر يومًا لا أنظف قيشاني الحمام، وأحيانًا أفكر أن نمو ورمى يتوقف على حالة البيت. لو كان البيت قذرًا، ينمو ورمى، لكن عندما أنظفه، يبدو أنه يتضاءل. قرأت في موسوعة(العادات الفاضلة) أن المرأة عندما تبدأ تهمل بيتها، تنتهي متجولة في الشوارع باحثة عن رجال لا تعرفهم ليأخذونها داخل فندق خفي وقذر.

لهذا، أحببت أن أزرع في بناتي، خاصةً إلينا، الاهتمام بالبيت، لكنني أعتقد أنني فشلت. أتذكر أن إلينا قد قصّت لي حلمًا عندما كانت صغيرة. رأت في المنام أنها كانت على شاطئ وأنها حفرت حفرة في الرمال ووجدت عملة. كانت تعلم أنها وجدتها داخل حلم، لكنها علمت أيضًا أن العملة حقيقية وأنها متينة، وفكرت أنها لو ضغطت عليها بشدة بيدها اليمنى ستجدها عندما تستيقظ. لم تجدها بالطبع. حينئذٍ،

وفي نفس هذا الصباح، نزلنا إلي الشاطئ وأخفيت عملة في الرمال وقلت لها: لماذا لا تحفرين هناك فربما تجدين العملة التي رأيتها في المنام. حفرت، وجدتها، ظلت مندهشة. يالها من حياة. الآن سأذهب لأنظف قيشاني الحمام لأني بعد ذلك سأشعر بالكسل.))

بعد أن قرأت هذا الحدث، نهضت من فوق أريكة أمي وذهبت إلي الشرفة. ولأنني أعيش في شقة مرتفعة رأيت المدينة كمن يتأمل جسدًا يحيط به. هذه المدينة هي جسد يمكن رؤيته، لكن الرؤية ليست بالضرورة مختصة بكل ما هو واقعي. فربما تكون هذه المدينة غير موجودة ولا نحن أيضًا موجودين مثل هذا الكنز الذي وجدته في الشاطئ.

إلى الآن لا أعرف هل الإلهام يجعلني حزينة، أم أنه يثيرني، لو كان مؤكدًا أن هذا الاكتشاف أكذوبة، فليس أقل تأكيدًا أن أمًا حققت حلمًا بهذه الصورة هي أم ملزمة بأن تبحث عن مصير مختلف لنفسها.

كل يوم، عندما أرتب غرفة نومي، أرى في البيت الواقع أمامي امرأة تطل من النافذة لتنظف بعنف حافتها. يبدو لي شيئًا غير مفهوم، لكنها تقوم بهذا الحدث غير المعقول كل يوم وفي نفس الساعة، كما لو كان داخله تكمن الحياة. من المحتمل أن تكون محقة، لأنها ربما تعتقد أنها لو مالت إلى الكسل، ستنزل إلى الشارع لتبحث عن رجال لا تعرفهم. لقد عانيت أنا أيضًا من وساوس من هذا النوع، لكنني أقلعت عنها، بالرغم من توصيات أمي. وعندما أقلعت عنها بقيت بلا هوية، لأن كل شعائر النظافة كانت تفرض عليَّ احتمالية أنني أنا ذاتي.

لكن أمي لم تنقل لي هذا فقط، لأنها في الوقت نفسه حققت حلم طفولتي، وزودتني بقرينة تتعارك لنتفق مع ما يسمونه واقع، أو لتخلق واقعًا خاصًا وتنعزل بحياتها، مثلي. بمعنى آخر، لقد رسمت

لي أمي الممرات الضيقة والغرف الفقيرة التي يجب أن تسير فيها حياتي، لكنها في الوقت نفسه خلقت لي عالمًا خاصًا لكي أستطيع أن أتحمل هذا السجن أو لأفجره إلى آلاف الأجزاء. وهبتني كل ما هو جميل وكل ما هو قبيح في الوقت نفسه وأدمجتهما بشكل غير منظم، لكنها تركت لي أريكتها وساعتها: تركت لي الأريكة لأجلس فوقها وأفك هذا الالتباس وتركت لي الساعة لتقيس إيقاع الإنسلاخ.
الساعة الآن الحادية عشر، تناولت فنجان قهوة، لكنه أرهقني، أشعر بغثيان. سأدخل إلى المطبخ الآن.

(٤)

أقلعت عن تدخين الحشيش منذ عدة أيام، وبدأ الواقع يعـرض نغمات نادرة الوجود. اكتسبت أثاثات البيت، التي تنمو عادةً بشكل بارز، درجة من التجسيد المضطرب بعض الشيء. أريد أن أقول إنني أرتبط بهذه الأثاثات وببقية الأشياء الموجودة بالبيت كما لـو كنت إنسان دخيل على هذا المكان. قبل ذلـك، لأتحصـل علـى الإحساس بالاستغراب كنت أحتاج إلى الحشيش، لكن منذ أقلعـت عنه تعدل بالتدريج شيء ما بداخلي. أتأمل الصالون، أعرف شيئين فقط كممتلكات خاصة بي: الأريكة والساعة، كما لو كان القدر قد وضعهما أمامي لفترة مؤقتة، كما لو كان هذا البيـت هـو نقطـة الانتظار التي يجب أن أستمر فيها بينما أعد نفسي لأشغل مكـاني النهائي. أجد نفسي في بعض الأيـام أتحـرك داخـل الـدواليب والأثاثات بفضول متطفل. من ناحية أخرى، ومنـذ أقلعـت عـن التدخين، زادت أحلامي. أحلم كثيرًا وبغزارة نادرة، لكنها تقع مني موقعًا حسنًا. يبدو أن الأحلام التي أستطيع تذكرها تملأ فراغـا لا يمكن رؤيته يسكن فيه جزء من نفسي، حتى عندما تستحوذ علـي عنصر مؤلم.

هذه الغرابة أيضًا تلحق إنريكي زوجي، الذي أتأمله كمضـيف ودود، بالرغم من أنه بعيد. وبالتالي يملؤني الشعور أنني أسكن في بيت ليس بيتي ومع رجل ليس زوجي. إن مجـرد قـولي هـذا، وكتابتي له، يمنحني إحساسًا بالضيق، لأنه بمثابة موافقة مني على

ألا أنتسب لأحد ولا لشيء، كما أن لا شيء ينتسب لي، ما عدا الساعة والأريكة. كل هذا يجعلني أتحول إلى شبح، ربما شبح أمي الذي يصمد في وجه هجران هذا العالم متشبثًا من خلالي بالأشياء المادية التي ارتبطت بها في حياتها. قد تكون هذه هي العزلة التي طالما تحدثنا عنها وقرأنا فيها بدون أن نعرف بالبداهة ما هي أبعادها الأخلاقية. حسنًا إذن كانت هذه هي العزلة: أن تجدي نفسك في العالم فجأة، كما لو كنت قد جئتي حديثًا من كوكب آخر بدون أن تعرفي لماذا طردوك منه، وتركوك تحضرين معك شيئين (في حالتي الأريكة والساعة) ويجب أن تحمليهما على عاتقك، كاللعنة، حتى تجدي مكانًا تستعيدين فيه حياتك بناءً على هذين الشيئين وعلى الذكرى غير الواضحة عن العالم الذي جئتي منه. العزلة هي انقطاع غير مرئي لكنه فعال، كما لو كانوا قد اخذوا منك السمع والبصر وكل شيء، وتركوك خالية من كل الأحاسيس الخارجية، من كل العلاقات، فقط وهبوك الإحساس باللمس والذاكرة، وفرضوا عليك أن تعيدي بناء عالمك، العالم الذي تسكنين فيه ويسكن فيك. هل يوجد في هذا أسلوب أدبي؟ هل يوجد فيه شيء مسلي؟ لماذا كنا نعجب بهذا كثيرًا؟

في هذه اللحظات شربت كثيرًا من الويسكي بهدف أن أعكر كل أحاسيسي، حيث أنني، عندما قرأت السطور الأخيرة المتعلقة بالعزلة مرةً أخرى، ملأني الخوف، وربما شيء من الشفقة على نفسي.

علينا أن نتخيل أن شخصًا ما لا يستطيع أن يرى نفسه من الذي يحيط به. ويهرب من نفسه باستمرار مثل من يجري ليبتعد عن ظله. رأيت أخي منذ يومين أو ثلاث. اتصلت به لأتحقق أنه ما زال على قيد الحياة، وأنه قادر على معرفتي، مانحة لنفسي بذلك مكانًا في حكاية الارتباط والاهتمامات التي تربط البشر ببعضهم.

كان حيًا وعرفني. اتفقنا أن نتقابل بعد العصر وأن نأكل وجبة خفيفة في شرفة كافتيريا قريبة من بيتي. أخبرت المخبر ليتابعني. تناولت فنجان قهوة، وطلب خوان فنجان شاي بالليمون. كان يتأملني بقلق وربما بخوف، كما لو كان قد حدث لي شيئًا، أو ربما شعر بمسئوليته تجاه حياتي.

- هل أنت بخير؟ - سألني في الحال

- ليست هذه هي المشكلة - أجبته، محاولةً أن أكون صادقة وربما لأطمئنه - المسألة ليست أنني لست بخير وإنما هي أنني أشعر أنني غريبة، لو نظرت لي من الخارج واضعًا في اعتبارك فقط الشكل الخارجي، ستجد نفسك مجبرًا أن تقول إن كل الأشياء تسير على وجهٍ معقول، لكنني لا أشعر أنني مرتبطة بهذه الأشياء المعقولة. كل منا، أنا وإنريكي بعيدًا عن الآخر منذ زمن طويل، وبالنسبة لابنتي، ماذا سأقول لك، أعتقد أنني أم باردة، والآن أنا أدفع الفاتورة. في الماضي كانت لي مصالح مهنية وسياسية، تخليت عنها بالتدريج. وأخيرًا فإن لكلٍ منا عالمه الخاص الذي يرتبط به، وعالمي أنا يبدو أنه قد تهدم بلا ضوضاء، وبالتالي، وبدون أن أنتبه، لم أستطع أن أدعمه بشيء.

أعتقد أنني وضعت خوان في موقف محرج. فأخذ موقفاً سلبيًا بشكلٍ مفرط، كما لو أراد أن يبرز لي أن قصتي لا تخصه، وأنه فقط كان مستعدًا للتحدث عنها بنفس الشفقة التي يتحدث بها عن الزمن، لكنه لم يستطع أن يحتفظ بهذه الحيادية طوال الوقت.

- أنا - قال- لم أفهمك أبدًا يا إلينا، لا أنت ولا زوجك، ومع ذلك أتذكر أنني في وقتٍ ما اعتقدت أنكما زوجين مثاليين. كنتما تمثلان أحلى ما يكون في هذه الحياة. كان ذلك منذ سنوات بعيدة عندما كنت انتقدتكما لتدخلكما في قضايا سياسية لكن،

انظري، أنا لا أفهمك حقيقةً. لقد وهبتك الحياة كل ما أردتـــي، في شبابك الثورة، وفي نضجك المال، مما تشتكين إذن؟

اندهشت من عدوانية أخي، فالواحدة منا لا تعرف إطلاقًا مـــاذا تمثل بالنسبة للآخرين أو بأي طريقة غير مبررة يمكن أن تفقد أو تربح عاطفةً ما. على أي حال، كان يبدو أنه يؤكد لـــي إحساســـي بالبعد عن العالم، بعزلتي. تأخرت في الرد عليه، ثم قلت:

- هذه ليست شكوى يا خوان، لكن كل الأشياء أصبحت لا تجذبني، بدون أن أفرض أي إرادة مني في هذا. أنا أشعر أنني وحيـــدة، واعتقدت أنني من الممكن أن أحكي لك، لا تخف، أنا لا أطلب منك شيئًا.

- أنا لا أعرف ما معنى الشعور بالعزلة ولا أعرف كيف تصـــبح الأشياء لا تجذبك. ذلك لأني لم أصل إلى مستواك الاقتصادي، ولم تمنحني الحياة هذا الكم من وقت الفراغ الذي تعيشين فيـــه، أنا أعتقد أنك تفكرين في نفسك بشكلٍ زائد عن اللازم. لو تلتفتي إلى ما يحدث حولك، لن يكون لديك وقتًا لتشعري بكـــل هـــذه الأشياء. قلتي قبل ذلك أنك أمًا باردة، لماذا لا تصححين هـــذا الوضع؟، أنت بالكاد تقابلين مرثيدس، والآن هي تحتاجك أكثر مما كانت صغيرة. سألت:- لماذا؟

نظر لي خوان بوجهٍ يكسوه الغضب، كما لو كان سيشرح لـــي أشياء معروفة، وقال:

- بهذه الطريقة ستكونين آخر من يعلم. ابنتك حامل.

تأخرت بعض اللحظات لأدرك معنى هذه العبارة، لكن عنـــدما أدركته شرعت في البكاء بلا عنف، كما لو كان حـــدثًا ميكانيكيًـــا تقتضيه حركة العين. أنا لا أعرف معنى هـــذا الانفعـــال لكننـــي

أستطيع أن أقول إنه من أكثر الانفعالات في حياتي. من حسن حظي كنت أرتدي نظارة شمس وأعتقد أنني استطعت أن أخفي دموعي. من المؤكد أنني تذكرت أن مخبري يراقبني من مكانٍ ما، وفكرت أنني لا أحب أن يراني باكية.

- أشكرك لأنك قلت لي – قلت في النهاية.

بقينا فترة نتحدث في مسائل محايدة، وأصبح خوان ودودًا معي. لم يعتذر لي، لكن طريقته في الكلام كانت تحمل نبرة اعتذار، وفي لحظة محددة سألته:-

- أتعتقد أنني أشبه أمي؟

- من حيث الشكل نعم بالطبع، أنت شبيهتها خاصةً عندما تلمين شعرك مثل اليوم. لكن من حيث الطبع أعتقد أنك لا تشبهيها إطلاقًا، أمك كانت محافظة وتناقشتما كثيرًا بسبب ذلك.

- اعتقد أن أمنا كانت تميل إلى تحفظها بالأشياء والطقوس والعادات لأنها كانت تشعر بالعزلة، لأنها كانت تحتاج لهذه العلاقات المستقرة لكيلا يصيبها الجنون.

- انظري يا إلينا، أنا رجل من الطبقة المتوسطة وليس لدي أي مداخل للتأملات العميقة. أمنا كانت لها شخصيتها التي تحيا بها، كما تحيين أنت بشخصيتك وأنا بشخصيتي، وعاشت حياتها مثل كل النساء في وقتها، ومثلها عاشت اثنتا مليون امرأة وأكثر.

عاد خوان إلى عصبيته، وبالتالي وجه الحوار إلى قضايا غير ملموسة، وبعد ذلك بقليل ودع كل منا الآخر. ضغط على كتفي وأعطاني قبلة حنون، في إشارة تبدو أنها دعوة لأن أثبت ولا أنهار. فكرت في العودة إلى البيت، لكن فكرة أن ابنتي حامل لم تتركني. ملأني الخوف أن أصبح وحيدة بين حوائط الصالون

الأربعة وأن تصيبني نوبة بكاء لا يمكن كبحه، بالإضافة لذلك فقد تذكرت أن مخبري يراقبني، فقررت أن أعطيه بعض الوقت لأؤكد شكوكه. كنت أحاول أن أفكر في أي شيء بعيدًا عن عائلتي لأنني بدأت أشعر بكراهية لا حد لها تجاه إنريكي لأنه لم يخبرني أن ابنتنا حامل. ومع ذلك، عندما أطللت برأسي على صالة القمار، وتحققت من كمية العزلة المتراكمة في كل واحد من اللاعبين واللاعبات، خرجت مهرولة من هناك، لأنها بدت لي مرآة من المستحيل أن أحتمل رؤية نفسي فيها. وصلت إلى البيت في حالة اضطراب لا أرغبها وبألم مسهب في بطني. واحتدّ إحساسي بأن هناك شيئًا في أمعائي يقاوم ليخرج، ليكون مطرودًا. ذهبت إلى الحمام بلا نتيجة. جلست على أريكة أمي وفكرت في ابنتي، ابنتي الحامل. الجنين الذي كان في بطني، وبين ذراعاي، تستعد الآن لتواصل السلسلة، بالرغم من أني لا أعرف إلى أين ولا إلى ماذا، هذه هي الحياة، فكرت، هذه كانت الحياة، ليست أكثر من ذلك: أن نولد ونلد ونموت، وأحيانًا ننمو. وبين فترة وأخرى يوجد مكان فارغ، وقت ميت، رعب ما، لا نتذكره.

بدأ إحساسي بالغضب، من إنريكي ومرثيدس لأنهما لم يخبراني، في الانحدار، بل اختفى عندما فكرت من هذا المنظور. في الحقيقة كان يبدو لي شيئًا تعيسًا أن أفكر في صور الآخرين الذين أتموها بأنفسهم أكثر من تفكيري في صورتي الشخصية، وبالتالي عندما وصل إنريكي لم أقل له شيئًا، وكنت لطيفة معه، أصبح الموضوع لا يؤثر في، كما لو كنت إنسانة أخرى، بالرغم من أنني، ولسببٍ ما، تمسكت بمظهري كأم لابنتي. استقبلت اليوم تقرير المخبر السرّي، وغفرت له بعض الأخطاء الواردة فيه، مثل قوله إنني طلبت ويسكي وليس قهوة، وفي النهاية، يقول ما يلي:

((هناك شيء سيئ في حياة إلينا رينكون يجعلها منهكة، ورأيي

هذا يرتكز على أن مظهرها العام دائم التغير. فبعض الأيام نجدها على ما يرام، والبعض الأخر في حالة سيئة. كما لو كانت تعـــاني من مرض مستقر، كنتيجة لأيام الراحة. كان وجهها اليوم عابسًا، لا أقول إنها لم تكن جذابة، على العكس، إن هذا الاضطراب فـــي ملامح وجهها يمنحها هالة من الغموض. كان شـــعرها ملمومًـــا، وبدت أكثر شبابًا. خرجت من بيتها في الساعة الســـابعة مســـاءً، وظلت تتنزه حتى وصلت إلى كافتيريا لهـــا شـــرفة تطـــل علـــى الشارع. جلست في إحدى موائدها، كأنها في انتظار مجيء أحـــد، وبالفعل، بعد قليل وصل هذا الشخص، وهو رجل فـــي الخامســـة والثلاثين من عمره عند وصوله تصافحا وتبادلا القبلات، وجلـــس بجانبها. قدموا لها ويسكي، وقدموا له شرابًا منقوعًا. كان عليّ أن أشاهد المنظر من بعيد، لأن الكافتيريا لم تكن مزدحمة، وأفضل ألا أدخل في نطاق رؤية إلينا رينكون لأسباب قد ذكرتها قبـــل ذلـــك. على أي حال، لقد التقطت صورة فورية أرفقها بالتقرير، فربما تفيد عميلي. كان الاثنان بعيدين قليلاً، لكن وجوههم واضـــحة بفضـــل وضع الإضاءة. حقيقةً، أنا لا أعلم من هو هذا الشـــخص، لكننـــي أستطيع أن أؤكد أنه أساء معاملة إلينا رينكون بالألفاظ، لأنها فـــي إحدى لحظات اللقاء لم تستطع كبح دموعها. انتابني إحساس بأنها تشعر بالرعب، كما لو كانت خاضعة للابتزاز بالتهديد. ربما كان الأمر هكذا، ربما كان يأخذ منها معلومات عن زوجها في مقابـــل السكوت عن أشياء تخجلها. أقول هذا لأن الشـــخص الـــذي كـــان يجالسها شبيه بضباط الشرطة. كان يرتدي ملابس مثـــل ضـــباط الشرطة، كان يتكلم مثلهم. ينظر إلى إلينا بنفس نظراتهم. ظلا سويًا لمدة ساعة وربع. ثم أعطاها قبلة الوداع. لكنها ليست قبلة ضـــابط شرطة، لكن أحيانًا لا يخرج كل شيء كما يرغب الإنسان. فكرت

أن السوء الذي تعاني منه هذه المرأة ربما يكون الهواجس، لأن في طريقة سيرها، وحركة ذراعيها محاولة للتخلص من شيء مقلق.

ربما لهذا السبب توجهت لصالة القمار لتنشغل عن هواجسها. وربما هوايتها للعب قد ساقتها للديون الزائدة التي إلى الآن لا تستطيع سدادها، ربما لهذا خرجت مهرولة من الصالة قبل أن تجلس فوق أي منضدة، بعد أن بذلت جهدًا من إرادتها النبيلة لكيلا تخضع للعب. عادت بعد ذلك إلى بيتها، سيرًا على الأقدام. كانت تبدو مشغولة وقد تخطت لحظات السكينة لتدخل في حالة استثارة عصبية. هذه الأشياء ندركها نحن المخبرون من طريقة السير، بالرغم من أنها تمر على كل الناس ولا تلفت انتباههم. عندما دخلت مدخل عمارتها كان الليل قد حل، كانت الساعة حوالي التاسعة. أحب أن أعرف إن كنتم تريدون في المستقبل أن أراقبها فقط أم أقوم بتسجيل حواراتها مثل الحوار السابق. وبالطبع التعريفة ستختلف))

أعتقد أن هذا التقرير هو أكثر التقارير التي أعجبتني، عندي إحساس أن هذا الرجل سيكرس حياته لي لو وجدني في ظروف صعبة. كانت الصورة الفورية المرافقة للتقرير رائعة. لأن خوان، حقيقةً، يبدو مثل ضباط الشرطة، يحاول أن يسحب مني معلومات. لا يوجد شيء يستطيع أن يبرز هويتنا كأخوة، ولا حتى كشخصين تربطهما أي عاطفة. يا للحياة.

(٥)

ذهبت أمس لزيارة ابنتي،كنت ساذجة عندما اعتقدت أنني قادرة على البقاء بعيدة عنها أثناء حملها، فمنذ أخبرني أخي وأنا أرى الفكرة تنمو أمام عيني كأنها وسواس، لدرجة أنني أصبحت عاجزة عن التفكير في شيء آخر. كنت أسأل نفسي من حينٍ لآخر: لماذا لم تخبرني هي؟ وكنت أرد على نفسي بأنها حاله نفسيةٌ، فأنا أحيانًا يملأني الحزن، وأحيانًا أخرى أكون عنيفة، وفي بعض اللحظات أفكر في عائلتي كما لو كانت لا تخصني في شيء. لكنها تخصني بالطبع، نعم تخصني، وهذا الحدث قد يكون الحدث الأخير المرتبط بقصة حياتي، لأنني على وشك أن أتحول إلى إنسانة أخرى. لا أعرف، أشعر بطريقة ما بأن هناك ارتباك في مشاعري، هذا الارتباك يتضمن قليلاً من كل شيء، قلق، خوف، كراهية، دوار. كما يتضمن فضول ونقطة من التفاؤل غير المبرر والمرتبط بمستقبلي. فمن ناحية يبدو واضحًا أنني لا أنتسب إلى مجموعة العواطف المنقطعة والمتصلة التي تشكل النسيج العائلي ومن ناحية أخرى أشعر أن هذا النسيج هو المكان الوحيد الذي ما زالت الحياة، حياتي، قادرة على البقاء فيه. إن كون ابنتي ستصير أمًا وأنني لا أشترك في هذا الحدث يضعني خارج العالم، في مكان لا نسمع فيه رنين الصرخات ولا تلين الدموع فيه شيئًا من صخوره. أعتقد أنه لو تحقق تحولي سأصير أنا وابنتي مرتبطتين بخيط غير مرئي، بخيط عضوي متناسق الأجزاء، وبناء عليه ربما نبدأ في حياكة نسيج جديد وستشغل كل واحدة منا مع مرور الزمن مكانًا محددًا.

حسنا لقد خرجت إلى الشارع لأفعل شيئًا محددًا، وبعد قليل وجدت نفسي أطوف حول بيتها عرفت حينئذٍ أنني لم أخرج إلا لرؤيتها، وعندما أصبحت قريبة من بيتها فكرت في أن أتصل بها تليفونيًا لأخبرها بزيارتي، لكنني خشيت أن تحاول التهرب مني بأي عذر، وبالتالي قررت الصعود مباشرةً. هي التي فتحت لي الباب، وسريعًا ما لاحظت أن وجودي غير مرغوبًا فيه. لم يوجد معها أحد بالبيت، فزوجها في عمله وخادمتها تركتها. لاحظت بطنها في الخفاء، لكن إلى الآن لم يكن الحمل قد ظهر عليها. كانت ابنتي جميلة، هي دائمًا أجمل مني، بالرغم من تركيبة أكتافها الرياضية التي تخفيها جيدًا بنوع الملابس التي ترتديها. كان التلفاز مفتوحًا، ولم تشأ أن تقلل من حدة صوته ليمكننا التحدث. في الحقيقة، عندما رأيتها جالسة على هذه الأريكة أمام التلفاز، محاطة بأثاثات تمتلكها وتسبب نوعًا من الحياة البعيدة عن اهتماماتي، شعرت بضربة من الضيق تنتابني. بدا لي أن كل هذه الأشياء قد رأيتها قبل ذلك في مكانٍ آخر، ربما في نفسي، وأن هذه الأشياء لا تؤدي إلي شيء، لا تؤدي إلى شيء. شعرت أنني مرهقة لأنني على قيد الحياة، لأنني مجبرة على رؤية تقدم الأجيال، مجبرة على حضور تعاقب السنين والفصول والأيام. وفجأة أصبحت حزينة وشرعت في البكاء. حاولت مرثيدس أن تهبني السلوى، لكنها لم تتخل كليةً عن نبرة النفور.

- لماذا لم تخبريني؟ سألتها في النهاية.

- لا أعرف - أجابت - قليلا ما أراك ولم أجد مناسبة لأخبرك فيها.

تنبهت أن في يدي الآن سلاحًا قيمًا لألقي الذنب عليها محققة بذلك نوعًا من الانتصار الأخلاقي عليها وعلى أبيها، لكنني لم أحب أن أفعل ذلك، لأنني شعرت أن في هذا المشهد الذي نمثّل فيه، عنصر

التكرار، عنصر النسخ، وهو عنصر يبعث الضيق مثل تقدم الأجيال وتعاقب الأيام. أمكننا أن نتحدث قليلا وتواعدنا أن نتقابل خلال أسبوع أو أسبوعين عندما تصفى نفس كل منا. أعتقد أنني سأتصل بها خلال هذه الأيام، وسأدعوها إلى تناول الغداء في مكان محايد لأرى إن كانت قادرة على طلب مساعدتي، أو طلب نصيحة. يسعدني كثيرًا أن أشعر بفائدتي في مناسبة مثل هذه. عليّ أن أحدد هذه الليلة إن كنت سأسافر كما أقترح عليّ إنريكي منذ عدة أيام أم لا.

(٦)

حسنًا، أنا الآن في بروكسيل بصحبة إنريكي. لقد قررت أخيرًا أن أسافر لأرى إن كان تغيير الديكور الذي يتحكم في حياتي سيؤدي إلى تغيير إحساسي بأنني إنسانة أخرى أم لا. فكرت أيضًا أن هذا الهروب قد يكون الفرصة الأخيرة التي أعطاها كل منا للآخر لننفرد بأنفسنا ولنتحدث عما حدث لنا في السنوات الأخيرة. ولكن سريعًا ما اختفت أو ضعفت هذه الآمال في طريق السفر. شعرت وأنا داخل الطائرة أنني ورمًا ينتقل من مكان إلى آخر بدون أن يسبب لي هذا التغير أي انفعال. قضى إنريكي وقته في قراءة الجرائد والمجلات، بينما كنت أنظر أنا من نافذة الطائرة وأفكر في الورم الذي صنع بيته في رحم ابنتي والذي كان على استعداد أن ينمو في مواجهة الحياة مع فقدان نفس الإرادة التي افتقدتها أنا عندما كنت أنمو، ليس في مواجهة الموت وإنما في مواجهة إمكانية أن أتحول إلى أخرى فكرت، فجأة، في الأورام التي كان يبدو أنها تحدد حياتي: ورم أمي والآن ورم ابنتي وأيضًا ورم بطني حيث أن إحساسي بأن هناك جسدًا في أمعائي يقاوم ليخرج مع فضلات الهضم، كان ينمو في الأيام الأخيرة. من ناحية أخرى بدا لي أن كل الأشياء ما هي إلا ديكورات.

ذهبنا أمس إلى بروخاص، تذكرت عنوان رواية لم أقرأها قبل ذلك "بروخاص الميتة"، لا أعرف أين سمعته، كان ذلك منذ سنوات بعيدة. لقد حفر ركنًا في ذاكرتي وظل هكذا حتى تأتي فرصة كهذه

ويطفو على السطح إنها مدينة ذات قنوات، مليئة بالضباب الذي يحاول أن يخبئ شيئًا وراء واجهته النظيفة. تخيلت أن كل هؤلاء الذين يتنزهون بشوارعها، وأنا منهم، كانوا قد ماتوا، لكنهم إلى الآن لم ينتبهوا لهذا الحدث.

نحن نقيم في هيلتون، وهو ليس ببعيد عن حي للمهاجرين الذين رأيتهم هذا الصباح وأنا أركب التاكسي. جميعهم بلا استثناء، يعطوني الإحساس أنهم ميتون، بالرغم من أنهم كانوا يتحركون مع جمود الحياة التي قد ودعوها. وعندما عُدنا إلى الفندق وبينما كان إنريكي يأخذ مفتاح الغرفة، رأيت امرأةً تشبهني بشكل قد أفزعني، وكانت ترتدي فستانًا شبيهًا بفستان كنت أرتديه منذ سنوات، قلت ذلك لإنريكي، فقال إنها تخيلات، وأنه لا يرى أي شبه بيننا. إنه رجل فاقد الإحساس مثل الجثة.

أشعر أنني مفتقدة لمخبري السري. ربما لو كان يراقبني في سفري هذا ويصفني بعد ذلك في أحد تقاريره، لأصبحت قادرة على التخلي عن هذه النبرة الجنائزية وهذا الحزن الذي يسكن عيناي. لكنني توقعت أن تقريرًا كهذا سيكون غاليًا بشكلٍ مبالغ فيه. لهذا لم آمره أن يراقبني.

يريد إنريكي أن نذهب غدًا إلى أنفرس، لكنني لا أريد شيئًا غير البقاء في الفندق، ولو كان ممكنًا داخل سريري. وبالمناسبة لقد بدأت ألاحظ أنه يشرب كثيرًا، وأنني تعودت على أن أصطحبه في معظم الوقت. الساعة الآن الثانية عشرة والنصف. عدنا من العشاء بالخارج، إنريكي الآن داخل الحمام. يبدو أنه تخلى عن طقوسه. أشعر أنني فاقدة بعض الوعي، وأنني مصابة بالأرق، لقد شربنا زجاجتي خمر، عندما وصلت إلى الغرفة شربت كأس ويسكي. أخاف أن أضطجع على سريري بلا نوم. ماذا يحدث لي؟. الآن خرج.

(٧)

خرج إنريكي ليتناول العشاء مع بعض الساسة الإسبان البارزين هنا، وبقيت وحدي. كان الجو ليلاً. سألني قبل أن يخرج، بلا اقتناع، إن كنت أرغب في أن أصطحبه، لكنني فضلت البقاء بمفردي لبعض الوقت. قال لي قبل خروجه إنه سيحاول الحصول على بعض الحشيش. لعل الفكرة لم تقع مني موقعًا سيئًا، ففي بعض الأحيان يغير الحشيش رؤيتنا للحياة وللواقع. إن أسوأ شيئًا في الفترة الأخيرة هو أن الواقع الذي أريد أن أهرب منه بدا أمامي بارزًا وقويًا.

انتقلنا هذا الصباح إلى مدينة أنفرس ولحسن الحظ قرر إنريكي استئجار سيارة. لقد كانت رحلة بروخاص التي قمنا بها أمس في غاية الإرهاق، لأننا انتقلنا في قطار. ضغط دمي الآن منخفض بسبب الحر والرطوبة. في منتصف الطريق، انحرف إنريكي عن الطريق العام حتى وصل إلى قرية مليئة بالأبقار. كان يبتسم بخبث كما لو كان سيفاجئني بشيء، وكان يقول "الآن سترين، الآن سترين" حسنًا، وصلنا في النهاية إلى مركبة صناعية هائلة الحجم مليئة بغرف تبريد، كانت كالشقق الصغيرة. دخلت في مجموعة غرف وخرجت متجمدة من البرودة. كانت غرف التبريد مليئة بحيوانات كبيرة الحجم، أعتقد أنها أبقار، مقسمة إلى أجزاء أو مفتوحة البطن وقد خرجت أمعائها. بقية المركبة كانت تشغلها نساء مرتديات زيًا أبيض، يجزئن بمهارة فائقة اللحم إلى قطع كبيرة،

كان اللحم يصل إليهن عبر الشريط المتحرك. كانت هناك امرأة تصطحبنا من مكانٍ إلى آخر وكانت تتحدث مع إنريكي بالفرنسية، ومن آن لآخر كانت تبعث لي ابتسامة لأفهم من خلالها أنها تعيرني اهتمامًا. بعد نصف ساعة تقريبًا فقدت الوعي بسبب هبوط حاد في الضغط، وأيضًا بسبب شعوري أنني موجودة داخل كابوس ولا أستطيع أن أستيقظ منه. قبل أن أفقد وعيي بقليل، قال لي إنريكي، في ركنٍ ما، وكان مبتسمًا بكل رضا، إنه شريك في هذا العمل بنسبة ٥٠%.

- نحن شركاء – عدل قوله في الحال – في هذا العمل بنسبة ٥٠%، استطعت أن أشترك في هذه الصفقة بأموال طائلة عن طريق شخص وسيط.

فكرة المتاجرة في اللحوم، اللحوم الميتة، بالرغم من أنها لأبقار، رسم أمامي صورة أن كل من كانوا هناك هم مجموعة من الموتى، الممزقين إلى جثث ولكن من نوعٍ آخر، نوعٍ أدنى من الأبقار في الرتبة، لأنهم بدلوا أجزائهم بالمال ليحصلوا في النهاية على موت وقور. أعتقد أنني من الآن فصاعدًا سأرى المال البلجيكي على أنه عملة قادمة عن طريق قانوني في بلد الموتى. حسنًا، شعرت حينئذٍ أنني سابحة في عرقي، ونظرت إلى النسوة المرتديات الأردية البيضاء، والشالات البيضاء، والأحذية البيضاء، كُنّ يبدُنّ ممرضات ميتات قمن بتزوير الجثث الممزقة، ووقعت مغشيًا عليّ. من رحمة القدر أن السيارة كانت مكيفة، لأن الجو بالخارج غير صالح للتنفس.

- يجب أن تذهبي إلى الطبيب – قال لي إنريكي ونحن في الطريق العمومي متوجهين إلى أنفرس.

- إنه الضغط، لكن كل أجهزتي على ما يرام.

لم اسأله عن شيء متعلق بالصفقة، التي كان يحدثني عنها بكل أمل وأعرف أن إنريكي لا يعتذر عن هذه الأشياء لأنه يشعر دائمًا أنني لا أقدر ما يفعل. وأنا بالفعل لا أقدر ما يفعل، ولا يثير اهتمامي، بالرغم من أنه بفضل ما يفعل نحيا حياة رغدة. إن السبب الرئيسي في حبه لمرثيدس كل هذا الحب هو أنها معجبة به، ودائمًا تقول له إن ما يفعله شيئًا رائعًا.

في أنفرس كنا ننتقل من هنا إلى هناك، دون أن أرى شيئًا أمام عيناي، كما حدث بالأمس في بروخاص، حيث بدا لي أننا كنا نتحرك طوال الوقت داخل ديكور واحد. أتذكر جيدًا الكاتدرائية التي دخلناها، لأنني شعرت بانتعاش وظللت ولمدة طويلة جالسة فوق مقعد.

نظرت منذ قليل من النافذة لأتأمل الشارع ورأيت رجلاً غير مهندم يسير في اتجاه حي المهاجرين الذي مررنا به أمس. حاولت أن أتخيله وهو يدخل بيته، ممثلا منظرًا عائليًا. بأي لغة سيتحدث؛ بالتركية، بالقشتالية أم بالفرنسية؟ هل له بالفعل بيت وهوية؟، أفكر أحيانًا أن هوية الإنسان شيء غير ثابت، يمكن أن يسقط منه كما يسقط الشعر عندما نغتسل ويختفي في البالوعة ليسير في اتجاه لا نعرفه. لهذا، على سبيل المثال، لم أتجرأ على الخروج بمفردي من الفندق، مخافة ألا أجد عند عودتي غرفة باسمي، وألا يتذكرون أنني أقيم هنا. قد أكون في انتظار أن يعود زوجي، لكنه لن يعود، لأنه في الحقيقة لا يوجد شيء اسمه زوجي ولا أحدًا أعرفه يسمى إنريكي. حينئذ، ربما، اتصلت بمدريد، بابنتي، لكن أيضًا قد لا يوجد شيء اسمه ابنتي ولا تشكل واحدة من علاقاتي، لهذا ملأني الخوف أن أخرج، فربما لا يعرفونني عند عودتي، وأبقى بلا هوية. حسنًا.

ناقشت إنريكي أثناء الغداء في موضوع حمل مرثيدس،

وعاتبته على أنه لم يقل لي.

- أعتقد أنه ليس من مسئوليتي أن أخبرك بهذا - أجاب.

- ليست من مسئوليتك؟ مسئولية من إذن؟

- ابنتك، مرثيدس هي التي يجب عليها أن تعرفك، وإذا لم تفعل ذلك، فأنتِ وهي تعرفين لماذا.

- فجأة - قلت - أصبح كل شيء منظم، وأصبح كل واحد يعرف دوره في الرواية، ويعرف ما يجب أن يقول، ومتى يقوله، وأنا يا إنريكي أصبحت خارج القسمة.

- كل منا في المكان الذي وضع نفسه فيه يا "إلينا".

لاحظت في إجابته لهجة استفزازية، ربما لأنه استاء من عدم اهتمامي بمتاجرته في اللحوم، وربما لأنه كان يطمح أن يستغل الفرصة ليكون هذا آخر حوار بيننا. قررت ألا أعطيه هذه الفرصة، وبدّلت الموضوع بموضوعات أخرى، وأظهرت له أن حمل مرثيدس لا يهمني في شيء.

بقيت في الحمام لحظات، محاولة أن أطرد من أمعائي هذا النزيل الثقيل، وتذكرت ما قالته أمي في مذكراتها فيما يتعلق بغرف حمامات الفنادق. كانت محقة. إنه مكان رائع لعقد اتفاقية مع الجنون الخاص. له شكل متوتر ولامع، لكنه ضعيف، مثل توازن أمي العصبي، مثل توازني أنا العصبي.

وبالمناسبة لقد أحضرت معي آخر كراسة من مذكرات أمي، بهدف أن أقرأ هنا نتيجتها النهائية. لكنني منذ أسبوع لم أقرأ شيئًا، وأعتقد، ولا أعرف لماذا، أن أفضل مكان لإتمام هذه القراءة سيكون في بلد أجنبي. وبالتالي، بعد أن قلت هذه العبارة، بدأت أقرأ:

((لقد اجتاحني المرض، فأنا ألازم الفراش منذ أيام كثيرة، وغدًا

سيحملونني إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية. لكنني على يقين أنني لن أعود إلى البيت مرةً أخرى، لأن قرينتي قد زارتني اليوم. وعندما يحدث شيء غريب، عندما يتحطم توازن ضروري بهـذه الصورة، فهذا يعني أننا سنموت. جاءتني "إلينا" قرينتي، وجلست على حافة السرير، وسألتني عن حالي. هي كانت تشعر أنها بخير، ولم تمكث وقتًا طويلاً. قلت لها إنني سعيدة بمعرفتها بعد كل هـذه السنوات الطوال، وعاتبتها على شربها للكونياك بإفراط، لأن هـذا يرهقني. أحب أن أقول شيئًا آخر، لكن ليست لدي رغبة، بـالرغم من أنني يجب أن أضيف أنني أعتني وأحترم هـذا الـورم الـذي اكتشفته في الفندق في دولة أجنبية منذ سنوات مضت. علـيَّ أن أقول إن هذا الورم يتجاوب مع اهتمامي بنفسي، وتصرفي كمنظمة لسلوكياتي، فعندما أتصرف بشكل سيئ، أو عندما لا أهتم بالبيت ينمو أسرع من العادة. في الفترات التي أجد نفسي على ما يـرام، متفقة مع ذاتي، يتوقف عن النمو. وهناك فترات أنسى فيها هـذا الورم إطلاقًا. لهذا، ربما كنت أشعر أنني مسرورة عندما أنسـى مشغولياتي. أخيرًا، أشير إلى أنني بلغت الثامنـة والسـتين مـن عمري، بالرغم من أني غير متأكدة من أنني كنت دائمًا ذاتي خلال حياتي الطويلة)).

(٨)

بالأمس وصل إنريكي متأخرًا، وكان شبه سكران. وجدني محبوسة داخل الحمام، كنت فريسة لنوبة من ضيق الصدر ناتجة عن قراءة الفقرة الأخيرة من مذكرات أمي. أحضر معه الحشيش، دخنا سويًا، حاولت أن أقوي تأثير الحشيش بتناول كأس ويسكي. سألني إن كان قد حدث لي مكروهًا؟. أجبته أنني لا أشعر أنني بخير.

لا يؤلمني شيء – أجبته – فالموضوع بكل بساطة أنك تتحدث مع امرأة تحيا في جحيم، وأنت إلى الآن لم تنتبه لذلك.

- كلنا نحيا في جحيم يا إلينا، كلنا بلا استثناء، لكننا لا نعطي الفاتورة لأحد ليدفع لنا الثمن. هل تعرفين لماذا؟ لأن كل منا يختار جحيمه الخاص، هذا الجحيم الذي يجد فيه الراحة أكثر من غيره. أعرف أنك تحتقرين حبي للمال، وأنك بعيدة كل البعد عن تجارتي، أقصد تجارتنا، لأنك أيضًا شريكتي فيها، لكن بفضل هذه التجارة أستطيع أن أنفق على نفسي.وأن أختار الجحيم الذي أريده، لا أن أسير هنا وهناك لأشتكي للجميع مصائبي. إن ما يحدث لك هو أنك مازلتي تجهلين في أي جحيم ترغبين أن تعيشي. تحققي جيدًا، أعطي لنفسك الوقت الكافي وعندما تعرفين، أخبريني. أعتقد أنني يمكنني أن أدفع لك ما تريدين لتحققي ذلك مهما كان غاليًا، وفي أثناء ذلك، علينا أن نحقق لأنفسنا حياة هادئة، من فضلك.

- هناك أشياء ليس لها علاقة بالمال – أجبته – لقد عايشنا هذه الأشياء في سنوات ماضية.

- انظري يا إلينا، في هذه الفترة كنا متحمسين، لكن كان ينقصنا الأفكار، والآن لديّ الأفكار، فأنا مليء بالأفكار التي تتغذى بالمال والأشياء المتعلقة بالمال. ولن أتنازل عن هذه الأشياء لأنها سبب وجودي. كوني منتبهة، لأن الأفكار عندما تموت تحل محلها الخيالات ونحن نعرف جيدًا أن الخيالات تمتد وتتسع.

لم أرغب أن استمر في الحديث لأنني أدركت أن لكلٍ منا منطق يختلف عن الآخر، وأنا أحسده على هذا المنطق لأنه صلب مثل الحجارة. عندما فقدنا بعض الوعي، دخلنا إلى السرير، مارسنا الحب بعاطفة غير مفهومة لكنني أدركت في لحظةٍ ما أن هذه العاطفة ناتجة عن معرفتنا أنها المرة الأخيرة التي سنمارس فيها الحب. كما أدركت أيضًا أنني ربما لا أعود إلى البيت، ليس لأنني سأموت كما حدث لأمي، عندما زارتها قرينتها، وإنما لأنني أتعجل عملية تحولي إلى إنسانة أخرى لأجد في النهاية جحيمي الخاص وأشعر بالراحة. خرج إنريكي، وأنا أعددت حقيبة سفري لأعود إلى مدريد، لكن بدونه.

(٩)

في استطاعة حل المشاكل ذات الطابع العملي أن تبرر كل الحياة، حتى الأشياء المكروهة. أنا الآن أقيم في فندق لفترة مؤقتة منذ عودتي من بروكسيل، وفي الوقت نفسه بحثت عن شقة صغيرة، وأخيرًا وجدت واحدة تناسبني وسأنتقل إليها خلال الأيام القريبة القادمة.

لقد تركت لإنريكي ورقة مكتوبًا بها سبب هجري له، لكنه حتى هذه اللحظة لم يحاول البحث عني. لا أعرف إن كان هذا الموقف يريحني أم لا.

على أي حال، فإن هذه الأيام التي أكرسها لحل مشاكلي العملية المتعلقة بحياتي القادمة جعلتني أتأمل كثيرًا في ميولي البرجوازية، ووجدت نفسي مجبرة على الاعتراف أن إنريكي كان محقًا في بعض الأشياء. لن أعيش في أي مكان ولن أتنازل عن وسائل ترفيهي القليلة التي تعودت عليها، لكنني في الوقت نفسه غير مستعدة لأن يكون الثمن لاستمتاعي بهذه الوسائل هو فقداني لكينونتي ولاهتماماتي. وبالتالي، عقدت اتفاقية بين دفعاتي البرجوازية وبين جنوني، فأنزلت جنوني ورفعت هذه الدفعات لأحقق بذلك نقطة التوازن الضرورية في الجزء الأول من حياتي الجديدة. أول ما فعلت عند وصولي إلى مدريد هو اتصالي بمخبري السري ليكتب لي تقريرًا يوميًا عن نشاطاتي. أصبحت لا أستطيع أن استغنى عن هذه التقارير، حتى ولو كانت مبتذلة، لأنها

شاهد على وجودي، وأيضًا لأن الشعور أن شخصًا ما يراني، يهبني القوة لأتحرك من جانب إلى آخر في مهمة قاسية لبناء حياتي الخاصة. لن ننتهي أبدًا من بناء أنفسنا. أشعر هذه الأيام أنني أواجه نفسي مثل متسلق الجبال الذي يواجه صخرة عليه أن يمحو منها كل ما ليس له أهمية.

لقد أقلعت عن الحشيش بشكلٍ نهائي، بالرغم من أنه من الحق أن أقول أن الحشيش هو الذي أقلع عني ذلك لأن إرادتي لم تتدخل في عملية الإقلاع. بكل بساطة لقد ابتعد عني تذوق نكهة التدخين، وبفضل هذا فقدت الدوار الذي كنت أشعر به عند الاستيقاظ في الصباح، كما أن جفاف حلقي قد اختفى. الحقيقة أنني لا أرغب في الإقلاع عن الحشيش نهائيًا، لأنه يهبني أشياء كثيرة، لكنني أحب أن أعقد معه في المستقبل علاقة مختلفة، أقل قهرًا. سأحاول أن أدخن لأشعر أنني على ما يرام وليس العكس، وسنرى.

الجو هذه الأيام مرتفع الحرارة. والناس تسير كما لو كانت سعيدة باقتراب الإجازة. أنا أسعد منهم لأنني لن آخذ إجازه هذا العام، وآمل فقط أن يترك الناس مدريد لأعيش بمفردي ولأقتحم المستقبل. والمستقبل هو نوع من الورم الذي بدأ في النمو في جزءٍ ما في جسدي، و سأغذيه كما لو كان ابني. أشعر بالشفقة على نفسي لأنني مازلت حية. بدأ الفندق يهبني الخوف. أخرج قليلا، مخافة ألا يعرفونني عند عودتي، وألا توجد غرفة باسمي، أو يتحدثون بلغة لا أفهمها. من رحمة القدر أن الشقة التي استأجرتها أوشكوا على الانتهاء من ترتيبها، وسيمكنني الانتقال إليها قريبًا لأعيش فيها.

(١٠)

أجد رائحة فمي كريهة هذه الأيام، كما أنني لا أتذوق الطعام. على أي حال، فإن حالتي قد تحسنت. صعدت بالأمس لأسبح في حمام السباحة التابع للفندق، لاحظت أن عضلات جسدي تتجاوب مع تحركات المياه، وكان هذا بمثابة استعادة بعد قديم من أبعاد جسدي التي قد نسيتها. وعندما عدت إلى غرفتي كنت مرهقة الجسد، وهو الشيء الذي بعث السرور في نفسي، فمنذ سنوات وأنا لا أعرف هذا النوع من الإرهاق. ربما عليَّ أن أقلل من الشرب، لكنني أقضي ساعات طويلة داخل هذه الغرفة، وأحيانًا أحتاج إلى أن أسكر بعض الشيء. ألاحظ أن شكلي لم يتغير، ربما أصبحت أكثر نحافة، لأن الحشيش يجعلني آكل بطريقة غير منتظمة، لكنني عامةً ما زلت أحتفظ بنفس الخصر الذي كنت عليه منذ خمسة عشر عامًا، وقد كنت سعيدة الحظ في ذلك، فأنا أعرف أن نساءً أخريات أقل مني في التدخين، لكن معدتهن أكثر اتساعاً. وهذا بالتحديد ما أشار إليه المخبر السري في تقريره عني في اليوم السابق:-

((..... لقد تحسنت إلينا رينكون قليلاً منذ هجرت منزلها العائلي وربما - يرجع هذا إلى أنها شعرت بالهدوء واعتنت بنفسها. الشيء المدهش هو أنها اقتربت من الرابعة والأربعين وإلى الآن تحتفظ بقوامها))

دائمًا يتضمن تقريره عبارات من هذا النوع، مرتبطة بمظهري الفسيولوجي. كان يقول عن وجهي منذ قليل أن به تجاعيد متناسقة

كما لو كانت موزعة لتعبر عن ذكاء فني. بدأت أعتني بنفسي أكثر من ذي قبل، منذ أن أقلعت عن الحشيش، وربما أيضًا لأن حالات الغيبوبة أصبحت لا تصيبني إلا نادرًا. كل ما أفعله الآن هو عبارة عن مشروع بعيد، أشياء بديهية طبقًا لها سأكون في طريق اكتشافي لوسيلة مختلفة لأعقد علاقة مع جسدي الخاص ومع كل أجزاءه. لقد رأيت في مذكرات أمي أنها كانت فقط قادرة على التحدث مع أحشاءها، لكنني أحب أكثر أن أتحدث مع جلدي ومع عضلاتي المرسومة تحته. توجد حديقة أمام الفندق، ومن غرفتي أرى فتاتين تجريان في صباح أيام معينة. هن أكثر شبابًا مني بالطبع، لكنني أجد فيهن جزءًا من نفسي، ربما خامدًا وربما ميتًا منذ سنوات طوال مضت.

أعتقد أنني تحسنت بدنيًا. وأنني أستطيع أن أطرد هذا الجسد الغريب المقيم في أمعائي. إن مجرد تخيل هذا، ينتابني الدوار لأنني لو وجدت نفسي هكذا على ما يرام، فلن يكون لدي أي عذر لأتجنب مواجهة نفسي، مواجهة رغباتي. إن وضع العاطفة في الجسد، في أمراضه ووعكاته، له مميزات كثيرة، لكن في الوقت نفسه ينتج كميات هائلة من المعاناة. طلبت من أخي أن يحضر لي من الشقة أريكة أمي وساعتها، بالإضافة لأدوات الزينة الشخصية. أفضل أن يحضر هو كل هذا لأنني لا أحب أن أتحدث مع إنريكي ولا أن أدخل البيت في الوقت الحالي.

لم أتصل بابنتي إلى الآن. أعتقد أنني سأؤخر هذا اللقاء لأنني لا أشعر بالقوة التي تساعدني على مواجهتها مرة أخرى، ربما أقابلها في هذا المكان الذي سيصير بيتي الجديد.

(١١)

اليوم أحضر لي ساعي البريد رسالة من إنريكي. أعتقد أنها عبارة عن نص مشتت الأفكار، حزين ، كما لو كان غير قادر على الدخول فى تفاصيل، وكان يقول ما يلي:-

((عزيزتي إلينا: فضلت أن أكتب لك رسالة على أن أتصل بك هاتفيًا، حتى لا تفسري موقفي هذا على أنه رغبة في التدخل في قراراتك، بالرغم من أن هذه القرارات تخصني أنا أيضًا مباشرة. أعرف أنك مقيمة في هذا الفندق عن طريق أخيك، وعن طريقه أيضًا أعرف أنك بخير.

أظن أن ما تفعلينه ليس له أي علاقة بي، بنا، أيًا كانت الأسباب،فأنت التي قررت أن تديرين دفة حياتك، أو تمزقيها. ولقد فعلتي ذلك بدون أن تستندي إلى أحد. أنا لا ألومك. بالنسبة لي – إن كنت أمثل لكِ أي أهمية – أريد أن أؤكد لك، بعيدًا عن رأيي في موقفك هذا، أنني مستعد أن أساعدك بكل ما هو ممكن. ومع ذلك، فأنا أحب أن أعرفك أنني غير مستعد للمعاناة، وأنني لن أعود أبدًا لأمنحك الفرصة لتفعلي معي ما فعلتيه في رحلة بروكسيل، وكنت مجبرًا أن أحتملك.

أرجوك، لأنك قررتي أن تختفي بهذه الطريقة، ألا تتصلين بي أبدًا، إلا إذا كان لديك خبرًا سعيدًا. أنا من حقي أن تحترمين شكل حياتي الذي اخترته لنفسي، شكل حياتي الذي لا يسع التراجيديا ولا آلام الأمعاء ولا صداع الرأس، والأكثر من ذلك أنه لا يسع الأسئلة

العظيمة المتعلقة بالوجود، أو القلق من عدم معرفتنا إلى أين نذهب ومن أين جئنا.أنا لا أفهم شيئًا بخصوص هذه القضايا التي لم تعد تهمني منذ زمن طويل، من قبل أن أتخطى حاجز النضج بكثير.لا تفهمي من ذلك أنني لا أحبك، بالرغم من أني أستطيع الاستغناء عنك كليةً.

كما أستغني عن أشياء أخرى، أشياء نحبها بنفس التلقائية ونفقد معها شعر رأسنا ونكتسب تجاعيد وجهنا الأولى.بالنسبة لمرثيدس،ابنتنا،لقد حكيت لها عن انفصالنا، بدون أن أدخل في تفاصيل، وهي لم تعلق. ربما عليك أن تتحدثي معها.أعترف لك أنه قد أسعدتني فكرة أن أكون جدًا، أن أكون جدًا شابًا، إن الإنسان منا عليه أن يضع عواطفه في مكانٍ ما، وأنا قد وضعت جزءًا من عواطفي في هذا الطفل الذي سيدخل في حياتنا بعد عدة أشهر.في المستقبل، بعد أن تستقرين وتصيرين أكثر هدوءًا، نستطيع أن نتناقش، لو أردتي، في المشاكل المتعلقة بهذا الانفصال الذي لم أكن سببه ولم أطلبه.))

لم أستوعب الجملة الأخيرة،جملة الوداع، لأنها رنت في أذني، مثل جمل الرسائل التجارية الرسمية.كانت رسالة إنريكي باردة للغاية بالرغم من أن موقفي لا يستحق شيئًا آخر. في لحظة ما جاءني وسواس لأرد عليها، لكنني اتخذت قرارًا ألا أتكلم إطلاقًا مع من لا يفهمني، لأنه ليس مفيد.

(١٢)

ربما كانت علاقتي بالحشيش هي البديل لعلاقتي بـأمي. لقد أشرت في مكانٍ سابق أنها وهبتني كل ما هو جميل وكل ما هو قبيح في الوقت نفسه،وبدون أي فواصل. كأنها تعرض لي شيئين لأختار منهما ما يناسبني. لقد حدث لي شيئًا مشابه بذلك مع الحشيش،فمن خلاله أدركت الواقع بشكلٍ مختلف، وساعدني على الهروب من السجن الذي تقع فيه النساء عادةً، وكان موجها إلىً بشكل خاص. لقد ساعدني الحشيش أن أرى الفخ، كما قال إنريكي، الذي تختبئ تحته الأشياء، لكنه وهبني أيضًا نوع من الخلل اللانهائي الذي يؤدي إلى طريق تدمير الذات، وهو شيء لا يمكن إدراكه بمفهومي الجديد للحياة. أقول هذه الجملة الأخيرة بنوبة خوف، لأنني أعلم أنِ توازني غير مستقر، وأن بداخله أشياء لا أسيطر عليها جيدًا، هذه الأشياء التي ما زالت توسوس لي لأعود إلى موقفي السابق.

اليوم يوم الأحد، وكل الأشياء والأشخاص أعلنوا مجيء يوم العيد. دائمًا كان يخيفني نهار أيام الآحاد، لأنه يبدو لي فترة فاصلة في حياتي الخاصة. نوع من إيقاف الأشياء الرتيبة التي اعتدنا أن نفعلها. ليس لديَّ الآن أشياء رتيبة. لقد فقدت كل علاقاتي، ويبدو لي الآن أن نهار يوم الأحد وقت جيد للراحة.

سأتناول غدائي في الفندق، وربما أتجول بعد ذلك لأعطي لمخبري فرصة للعمل. كثيرًا ما يشرد خيالي معه، مع صورته،

وأعترف أن الإعجاب الذي يضمره لي والذي يستشف بحياء في تقاريره، يمنحني نصيبًا من الدوار، يذكرني بالدوار الذي كنت أشعر به في شبابي. سأشاهد التلفاز بعد ذلك، وأحاول ألا أشرب أكثر من كأسين ويسكي.

أعتقد أن الشقة ستكون جاهزة خلال الأسبوع القادم لقد انتهوا من الدهان ومن عمل الأشياء التي طلبتها منهم في المطبخ والحمام. سأخرج غدًا لشراء الستائر.

(١٣)

أخيرًا خرجت بالأمس لشراء الأشياء المتبقية لتجهيز الشقة. كانت الحرارة مرتفعة، لذا ارتديت فانلة وجيبة واسعة وخفيفة، كنت قد اشتريتها هذه الأيام. كانت ملابسي في مجموعها ملابس فتاه مراهقة، لكنها كانت تلائمني وتجعلني أكثر رقة. ربما عليَّ أن أصلح شعري، أو أبدل تسريحتي. منذ عشرون أو خمس وعشرون عامًا وأنا أحمل هذه الضفيرة، سيكلفني كثيرًا أن أحيا بدونها، لكنني أعتقد أنني لو قمت بقصها سأكون أكثر شبابًا.

ذهبت إلى المنطقة التجارية بوسط البلد، شاهدت المحلات، اشتريت الكماليات الصغيرة التي تجعلني أشعر أنني محمية داخل شقتي. تناولت غدائي في إحدى الكافيتريات، وبينما كنت أتناول قهوتي بدأت أسمع أغنية لفريق بيتلز، كنت قد سمعتها منذ عدة أشهر في إحدى الحانات عند ما كنت آكل هناك. كان الموقف متشابه، لكنني كنت مختلفة. فأنا الآن امرأة قد أمسكت بزمام حياتها بالرغم من أني لا أعرف كيف أتحكم فيه بشكلٍ جيد،بينما في الماضي كنت امرأة تتوقف حركاتها على دفعات خارجة عن إرادتها كما لو كنت إنسانًا آليًا، أو آلة تتنفس وتقودها أيدي خفية لا يمكن رؤيتها.

عندما خرجت مرةً أخرى للشارع، حاولوا سرقتي بقوة السلاح. كنت متجهة لشارع سيرانو، فجأة خرج شاب في العشرين من عمره من مدخل عمارة مظلم، وضع المطواة في أعلى بطني،

وعندما كنت على وشك أن أسلم له حقيبة يدي ظهر رجل بدين، كأنه قادم من السماء، وقف بين اللص وبيني. أتذكر أني جريت مهرولة، وكنت حزينة لأنني لم أستطع أن أدقق النظر في ملامح منقذي، لأنه لم يكن إلا مخبري السري. بعثت هذا الصباح غلام الخدمة في الفندق ليحضر لي التقرير، وكان يقول ما يلي:

"خرجت إلينا رينكون في الساعة الحادية عشر صباحًا من الفندق الذي تقيم فيه لفترة مؤقتة، سارت على مهلها حتى المنطقة التجارية بوسط البلد وهناك قامت بشراء عدة أشياء من بعض المحلات. كانت ترتدي ملابس خفيفة ومتواضعة: فانلة وجيبة، وهي بلا شك ملابس لنساء أصغر منها كثيرًا في السن ومع ذلك، كانت الجيبة، الجيبة على وجه الخصوص، لائقة جدًا على جسدها.

نوعية الأشياء التي اشترتها تبرز نيتها في الانتقال في أقرب وقت ممكن إلى شقتها التي استأجرتها في شارع ماريا مولينير في سلسة بلاثا دى كتالونيا الجبلية. وهى قريبة نسبيًا من بيت الزوجية. أحيانًا ترك المدينة يسبب الحزن أكثر من ترك الزوج.

تناولت غدائها ببطء، كأنها في غيبوبة، فى إحدى الكافيتريات بشارع بلانكيث، وعندما خرجت من هناك كانت على وشك أن يسرقها شاب كان يبحث عن مال ليتعاطى نوعًا من المخدرات. وقفت بينها وبين الشاب، خرجت هي مهرولة، واستقبلت أنا ضربة فى أعلى الحجاب الحاجز قبل أن استعد للمناوشة، فأعطيته لكمة هوت به على الأرض وظل يتدحرج.لم يزد وزنة أكثر من خمسين كيلو جرام، لهذا شعرت بالندم لأنني قد ضربته بعنف. نهاية الأمر أنني فقدت إلينا رينكون من أمام نظري، وبالتالي ذهبت إلى إحدى دور الإسعاف ليعالجون لي جرحي. في أغلب الظن، أن إلينا لم تتمكن من رؤية وجهي لأنني وقفت أمامها بظهري، ولم يكن هناك

وقتًا لنتناوب النظر قبل أن تشرع في الهروب.أغلق التقرير عند هذه النقطة لأنه لا يوجد شيء ملموس لأضيفه، كما أنني لست في حالة جيدة، فلأساعد نفسي ليندمل جرحي."

بعد أن قرأت التقرير، اتصلت هاتفيًا بالوكالة لأسمع صوته وسار الحوار بشكل لم أكن أنتظره، لكنه أعجبني كثيرًا.

- إن مهمتك – قلت له بصوت حاد بعد أن عرفته بنفسي – لا تكمن في حماية إلينا رينكون، وإنما في مراقبتها حيث ذهبت وإخبارنا بعد ذلك بكل تحركاتها.

- معذرةً يا سيدتي – أجابني بنبرة محترمة – أنا أعرف ما هي مهمتي عندما أرى شخصًا يعتدي على آخر، وربما لو عاد نفس الحدث مرة أخرى لفعلت ما فعلته، حتى لو كانت العواقب أوخم مما حدث لي.

- التقرير قصير جدًا كما لو كنت تحاول أن تخفي عنا بعض تحركات السيدة المراقبة. لقد بدأنا نشعر أنك معجب بهذه المرأة بشكلٍ زائد عن الحد، وربما نستغنى عن خدماتك.

- أحقًا ما تقولين؟ – أجاب الصوت – اسمحي لي أن أعتذر عن هذه المهمة البغيضة. لا يجب أن أقبل أبدًا مراقبة من هذا النوع.

- لماذا تقول هذا؟ – سألت بنبرة فاتنة مخافة أن يضع السماعة.

- أولا، يا سيدتي، لأنه لا يجب أن أعمل مع عميل مجهول، ثانيًا، لأنني يجب أن أعرف الغاية الموجه إليها هذا البحث، ثالثًا، لأننا في هذه الحالة نعتدي على امرأة مجردة من الأسلحة، ونلصق بها ميل مرضي بهذه اللعبة، وهو ميل يبتعد عنها. فإذا كانت المشكلة هي أنها مدانة لكم في نادي القمار، عليكم أن تأخذوا أموالكم من زوجها، فهو رجل ثري. اتركوا إلينا رينكون في سلام، فيكفيها

ما عانت وما احتملت من زوجها إنريكي.

- إنك تعشقها – قلت – وهذا لا يسمح لك أن تكون موضوعيًا. عليك ألا تنخدع.

- لقد طلبتم مني ألا أكون موضوعيًا، من ناحية أخرى فإن هذه المحادثة غير مجدية. بلغي استقالتي لرئيسك، وأخبريه أنني سأستمر في مراقبة إلينا رينكون، لكن هذه المرة من أجل حمايتها منكم. لا أعرف لماذا تخفون أنفسكم، دائمًا الأشياء السرية ما هي إلا أشياء غير مشروعة. ألمسوا شعر هذه المرأة، وستجدون أنفسكم في مواجهتي أنا شخصيًا.

قال هذا ووضع السماعة،وتركني في حالة ذهول لم أخرج منها إلى الآن. هل سأدخل في قصة حب؟، لا أعرف، لكن الشيء المؤكد هو أن المخبر أصبح يقوم بدوره كعلاقة لا يمكن الاستغناء عنها في الوقت الحالي. فجأة، قفزت إلى ذهني فكرة، فربما تحرى هذا الرجل عني وعرف من أنا وبالتالي فإن موقفه هذا يهدف جذبي إليه. بعد غدٍ سأنتقل إلى مسكني الجديد.

(١٤)

قصرت شعري وهو الآن قصيرًا جدًا كفتاة شابة رأيتها في إحدى المجلات. أبلله كل يوم عندما أغتسل، وسريعًا ما يجف. فكرت أنه كان يجب أن أفعل ذلك قبل أن انتقل لبيتي الجديد ليتكامل تحولي. أنا الآن إنسانة أخرى.

هذه هي أول ليلة أنام فيها في بيتي الجديد. حلمت كثيرًا، لكنها كانت أحلام غريبة، من الصعب أن أصفها، لأنها مفتقدة للترابط الذي تستوجبه الأشياء التي نحكيها. عندما كنت أدخن الحشيش، كنت لا أحلم، كما لو كان المخدر يحل محل الأحلام أو الكوابيس بمعنى أدق. أنتظر عدة أيام، بعدها سأعود لتدخين الحشيش، لكن بطريقة أخرى، عندما سأحتاج إلى نكهته.

أتحرك داخل الشقة كما لو كنت مسجونة بداخلها منذ سنوات. أشعر بحوائطها، بغرفة حمامها، بأثاثها، كما لو كانوا امتدادًا لذاتي لا كأعدائي. أنا بخير، أشعر بصحتي النفسية، وبرغبتي العارمة في معرفة كيف ستكون حياتي في السنوات القادمة؟ كنت سأصير امرأة عجوز؟ وبماذا سأسمي ما يخصني؟

اتصلت هاتفيًا بابنتي بهدف أن أدعوها على تناول الغداء معي لكنها اعتذرت، قالت إنها ستسافر غدًا لقضاء الإجازة وإنها تجهز كل شيء. كانت لا تريد رؤيتي، وأنا شعرت أنني معفية من هذا اللقاء، لأنني ليس لدي شيء لأقوله لها.

في خلال الأشهر القادمة سينمو كل من ورمي وورمها بشكلٍ

متوازٍ. لكن ورمي، الذي سأولد من خلاله، ينمو في اتجاه الرغبة في حياة جديدة، مختلفة، بينما ورمها ينمو في اتجاه التكرار الميكانيكي الذي رأته يحدث أمامها مع أخريات. لم تنتبه مرثيدس إلى الآن إلى أنها امرأة، وأن هذا الوضع يفرض عليها أمرًا يجب مواجهته عاجلا أو آجلا. فإذا أردنا أن نحيا علينا أن نستمر في العناء. لقد وضعت أريكة أمي بجانب نافذة الشرفة الصغيرة التي تطل على شارع ماريا مولينير، وهو شارع ضيق لكنه هادئ أنا الآن جالسة فوق الأريكة، وأكتب هذه السطور التي ربما تكون السطور الأخيرة في حياتي السابقة التي ختمتها في بروكسيل، في اليوم التالي لمقابلتي لقرينتي.

إن تك تاك ساعة الحائط شيء لطيف، مثل دوار الفراغ الذي أفتتح به مستقبلي. ما زالت الحياة أمامنا، علينا ألا نتعجل. في هذه اللحظات أشعر أن الأشياء الغريبة التي كانت تتحرك في أمعائي قد اختفت، ألاحظ غيابها كما ألاحظ غياب ضفيرتي كلما انحنيت برأسي للأمام.

أجد أمامي رجلين واقفين في الشارع، أمام شرفتي، يشكلان جزءًا من هذا المجتمع، من هذه الآلة التي يمثلها جيدًا زوجي إنريكي. إنهما يعيشان داخل كابوس ويشعران أنهما صانعاه. وعندما يستيقظان من هذا الحلم سأقودهما إلى حياة لها فائدة.

فجأة تجمعت الشمس أمام عيني بشكل حجب عني الرؤية، من نافذة الشرفة يدخل ضوء خاطف للبصر، أبيض مثل غرف حمام الفندق، وفي وسط هذا الضوء، سريعًا ما سيتجسد شكل مظلم وجميل مثل شكل الشيطان لكنه رقيق وحلو مثل الأشياء الإلهيه.

انتهت

المترجم

أحمد محمد عبداللطيف

- مواليد مدينة الحوامدية، جنوب الجيزة، يوم ٦|٤|١٩٧٨
- تعلم بالأزهر وحصل على ليسانس في اللغة الإسبانية من كليــة اللغات والترجمة بتقدير عام جيد جدًا سنة ٢٠٠٠ وكــان مــن أوائل دفعته.
- حصل بعد ذلك على دبلوم الإرشاد السياحي.
- يعمل مترجمًا بجريدة أخبار الأدب الإسبوعية، بالإضافة لعملــه كمحاضر في التاريخ والآثار المصرية للمجموعات السياحية.
- سبق له نشر كتاب "**ممنوع اللمس وقصص أخرى من إسبانيا وأمريكا اللاتينية**" بسلسلة آفاق عالمية التابعة للهيئــة العامــة لقصور الثقافة.
- له في المجلس الأعلى للثقافة مسرحيتان تحت الطبــع "**الأيــام الخوالي**" لأنطونيو جالا، و"**القرار الرفيع**" لميجيل ميورا.
- يعكف الآن على ترجمة الأعمال الكاملة للروائيــة والشــاعرة الإسبانية بيجا ارامبورو.

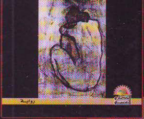

خوان خوسيه مياس : هو أحد عباقرة الرواية الذين أهدتهم لنا إسبانيا في النصف الثاني من القرن العشرين، فهو كاتب من طراز «ماركيز» و«كورتاثار» و«ثيلا» و«محفوظ» من حيث الإبداع والتجديد، وإن اختلف معهم في أسلوب السرد والمدرسة القصصية التي ينتمي إليها.

ولد في بالنثيا بإسبانيا سنة ١٩٤٦، وعندما بلغ السادسة من عمره انتقل إلى مدريد وأقام هناك منذ ذلك الحين. درس الفلسفة والآداب بجامعة كومبلوتنسي، ولم منعه عمله من أن يكرّس جزءًا من وقته لعشقه الأول : الأدب.

والعنصر المشترك في كل روايات مياس هو أن الأشخاص يتحركون في عالم واقعي وعالم خيالي، ويندمج العالمان بدون أي حدود واضحة حيث أن الصدفة تساعدهم من جانب وسخرية الحياة من جانب آخر ليجدوا حقيقة حياتهم، تلك الحياة التي نجد فيها حقيقة مزدوجة أو تشابه خيالي، كما هو الحال مع (إلينا رينكون) بطلة هذه الرواية ومع الأخوين التوءم في «عائد إلى البيت».

وبالنسبة لأسلوبه نجد أنه قد تخلى عن أي سطحية مستخدمًا القصص الموجزة ذات البساطة الظاهرة التي تختبئ ورائها تركيبة معقدة تحتاج إلى تعمق في التفكير لإدراكها كاملة.

لوحة الغلاف للفنان

ARA
MILL